قرية بنى هلال

بين المسار التاريخى والواقع الاجتماعى

الدكتور السيد حنفى عوض
الدكتور محمد المهدى صديق

دار المعارف

قرية بني هلال

بين المسار التاريخي والواقع الاجتماعي

اعداد

دكتور السيد حنفي عوض

مدرس بقسم الاجتماع

كلية الآداب بسوهاج

جامعة اسيوط

دكتور محمد المهدي صديق

مدرس بقسم التاريخ

كلية الآداب بسوهاج

جامعة اسيوط

الطبعة الأولى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيـــل ـ القاهرة ٠ ج ٠ م ٠ ع.

مقدمة

بقلم الدكتور محمود حلمى مصطفى
عميد كلية الآداب بسوهاج

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المسلمين ٠

يسعدنى أن أقدم أول ثمرة لانتاج علمى مشترك بكلية الآداب بسوهاج قام به الزميلان الكريمان الدكتور السيد حنفى عوض المدرس بقسم الاجتماع والدكتور محمد المهدى صديق المدرس بقسم التاريخ ٠ وأهم ما يميز هذا النتاج العلمى أنه دراسة تاريخية اجتماعية أنثروبولوجية تهدف الى فهم النموذج الثقافى لمجتمع قرية بنى هلال - التابعة لمحافظة سوهاج من خلال سياق جذورها التاريخ الذى بدأ مع هجراتهم من شبه الجزيرة العربية الى مصر وتراحلهم منها الى شمال أفريقيا وغربها ٠

ولقد أسفرت نتائج هذه الدراسة عن مضامين لها قيمتها العلمية حينا تناولت بالتحليل العلمى أسلوب الحياة فى مجتمع هذه القرية وارتباطه بعادات وتقاليد قبلية تستمد أيديولوجيتها من جذور الماضى ولم تدع لبعض أبنائها حرية التشكيل والسلوك بعيدا عن التوحد داخل بنائها الجماعى الذى تشارك فيه جماعيا فى قيم واحده ومسئوليات تضامنية ٠

وبالرغم من شواهد الدراسة حول مظاهر الانسجام الاجتماعى الوثيق بين جماعة القرية والتأثير الروحى والأخلاقى فى هذه الجماعات الأولية الا أن هنـاك من الجوانب السلبية التى تؤثر على بناء الجماعة وتجعلها بمنأى عن أساليب التقدم نتيجة الحياة القلقه المليئة بالمتاعب وهو يجعلنا

نعقد الأمل على تعديل نسيج العلاقات الاجتماعية بشكل يفيد المجتمع فى تنمية موارده ورفاهية أفراده اذا ما حولنا اهتماماتنا وبصفه دائمة على الدراسات الحقلية الاجتماعية لفهم واقعنا الاجتماعى قبل أن ندخل عليه ألوانا جديدة من الثقافات نستطيع أن نختار من بينها ما يتلاءم مع احتياجاتنا من برامج تنموية ٠

ان المنهج العلمى الذى انتهجه الباحثان بالاستعانة بالمعطيات التاريخية فى الدراسة الاجتماعية الانثروبولوجية تعد أحد أساليب التكامل بين الدراسات الانسانية ، كما أن النتائج التى أسفرت عنها الدراسة لاشك انها اثراء للمكتبه العربية واضافة علمية جديدة يمكن ن تسهم بجديد سواء فى مجالات علم الاجتماع والانثروبولوجيا أو علم التاريخ ٠

والله ولى التوفيق ٠

أ ٠ د ٠ محمود حلمى مصطفى

عميد كلية الآداب بسوهاج

١٨ / ٦ / ١٩٨١

الفصل الأول

قرية بنى هلال
المدخل والمنهج (*)

١ - مدخـــل للموضـــوع :

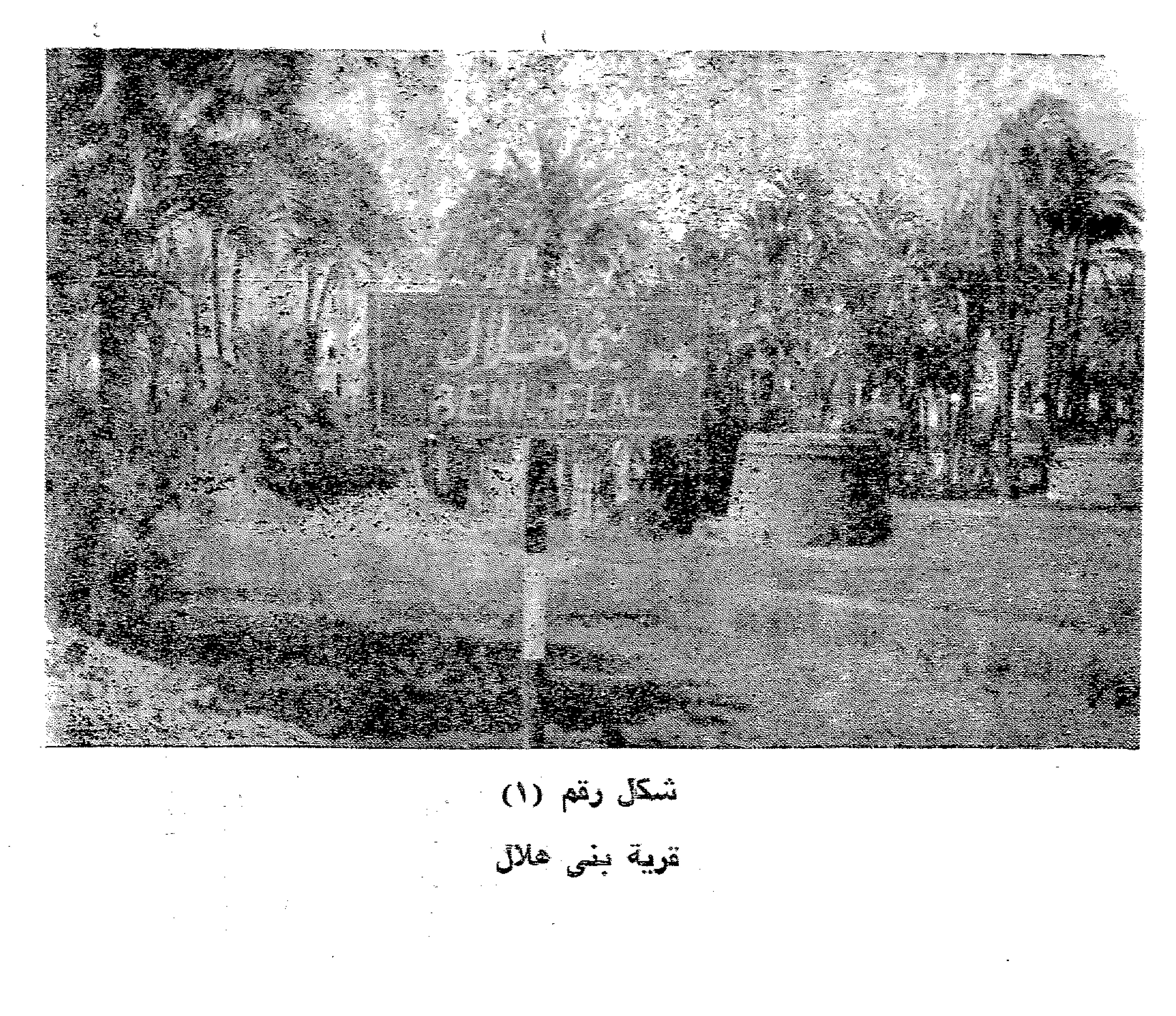
يواجه المجتمع القروى فى عالمنا المعاصر بعض المتغيرات التى تتنـاول مظاهر حياته الاجتماعية للخروج من طابع التخلف الى نطاق التقدم ٠

ومع ذلك فان اى جهود تبذل فى هذا المضمار مهما قدر لها من وسائل النجاح فانها وحدها لا تستطيع أن تحقق أهدافها دون أن يسبقها او يواكبها على الأقل تغيرات فى المظاهر الثقافية لهذا المجتمع تلك التى سادت عبر قرون من السنين والتى تعد فى حقيقتها أهم قضايا التنمية ٠

وحينما يأتى دور البحث العلمى لدراســة مجتمــع « قرية بنى هلال » كنموذج لاحدى قرى الصعيد فان أول ما يلفت النظر علاقة هــذا الاسم بقصة « أبى زيد الهلالى » الذى تدور حوله بطولات الاقصوصة الشعبية التى مازالت أسطورتها قائمة فى تراثنا الشعبى ٠

وكحقيقة فان اختيارنا لدراســة مجتمع هــذه القرية انمـا جاء بمحض المصادفة ٠ ففى ٢٠ ديسمبر عام ١٩٧٨ أغارت قرية « بنى هلال » للثأر من قرية مجاورة لها ٠ واتخذت فى ذلك أسلوبها التقليدى الذى تنفرد به على

(*) د ٠ السيد حنفى عوض



شكل رقم (١)

قرية بني هلال

قرى الصعيد وهو حمل الرايات وضرب الدفوف وحشد النساء والأطفال فى مسيرتها ولعل ذلك هو الدافع الحقيقى فى لفت نظرنا الى هذه القرية ٠

وحينما حولنا الرجوع الى التراث التاريخى لسيرة « بنى هلال » وجدنا أن بعض الأنماط السائدة فى هذه القرية تكاد لاتخرج عن كونها امتدادا لثقافات تاريخية لحياة أسلافهم ٠ وما يعنينا هنا تلك المعطيات التاريخية لهذه السيرة التى أسهمت بالقدر المتاح منها على توجيه دراستنا فى محاولة اماطة اللثام عن حقيقة الواقع الاجتماعى لهذه القرية ٠

والشاهد لبيانات هذه الدراسة أنها جاءت من خلال دراسة حقلية فى قرية « بنى هلال » استخدمنا فيها طريقة البحث السوسيو أنثروبولوجى بهدف الوصول الى المظاهر الثقافية لهذه القرية فى ضوء بنائها الاجتماعى، على اعتبار أن أى نظام اجتماعى يمكن فهمه فهما موضوعيا اذا نظرنا اليه فى علاقته ببقية التنظيم السائد فى ذلك المجتمع ، نظرا لما بين نظم المجتمع الواحد من تفاعل ومن تساند وظيفى ٠ وما نقصده من معنى المظاهر الثقافية فى دراستنا ذلك الكل المعقد الذى يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات وأى قدرات أخرى تتوافر للفرد كعضو فى المجتمع (١) وينص هذا التعريف على مفهوم الثقافة فى اطار عريض جدا ويراه العديد من علماء تطور الانسان فى مفهومات أكثر تحديدا ، فهم يهتمون بصفة خاصة بألا تضيع الفكرة الأساسية من الثقافة على أنها التكامل الرمزى لسلوك الافراد فى نظام أكبر ، وهناك تعريفات أخرى يذهب اليها « لينتون » ، « لى » «Lee» «Linton» باعتبار الثقافة مجموعة منظمة من الاستجابات المستنيرة التى تتعلمها الكائنات الانسانية فى أى مجتمع من كبارهم والتى تنتقل منهم الى الأجيال الأصغر فتضفى عليهم خصائص مجتمعية على بيئتهم ٠ وتعد البيئة جماع

---

(١) Leslie A. white, The concept of cultur e., American Anthropologist, 61 : 227, April 1959.



شكل رقم (٢)
ريفية من بنى هلال
تعمل بجدل الحبال

كل الظروف الخارجية وتتمثل فى عنصرين أولهما يحدد الوضع الطبيعى للوجود الانسانى وثانيهما فتمثله الثقافية والمقصود بها تلك العوامل غير الطبيعية ـ أى المكتسبة ٠

ودراســة البيئة مفهوم ديناميكى وهى تختص بالتفــاعل بين الوطن والثقافة وتهتم بصفة خاصة بالتوزيع المكانى الناتج عن هذا التفاعل ٠ وهكذا تساعدنا فكرة دراسة البيئة على تأكيد التبادل المستمر بين الأفراد بأعتبارهم ناقلين للثقافة وبين بيئتهم (٢) ٠

والبيئة موضوع دراستنا يتحدد مجالها الجغرافى فى قرية « بنى هلال » التى تقع شمال مدينة المراغة وجنوب قرية الصوامعة مركز طهطا ٠ يحدها من الشرق نهر النيل ومن الغرب الخط الزراعى لطريق سوهاج اسيوط ٠ وتبعد هذه القرية عن مركز المراغة بحوالى أربعة كيلومترات ٠ كما تبعد أيضا عن مدينة سوهاج ـ عاصمة المحافظة ـ بحوالى ستة وعشرين كيلو مترا ، وطبيعيا تمثل هذه القرية النطاق الفيزيقى والوعاء البشرى للدراسة ، وشأنها شأن أى قرية مصرية نجد فيها الزراعة النمط السائد فى الانتاج بالاضافة الى بعض الصناعات اليدوية التى تقوم بها بعض نساء القرية وتعتمد فيها على منتجات النخيل من الحبال والحصر والمقاطف ٠

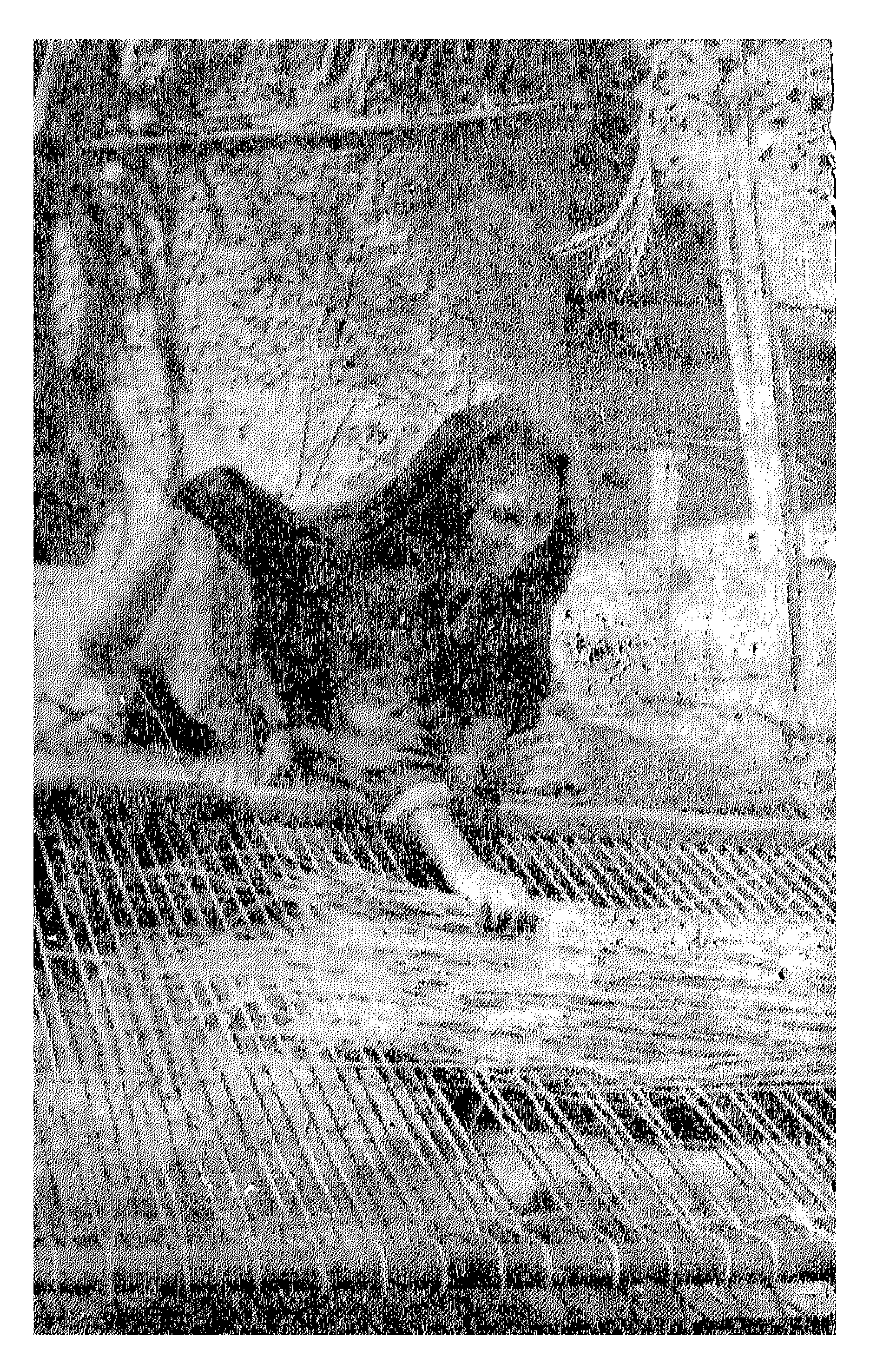
ويبلغ عدد السكان فى قرية بنى هلال ١١٤ر١٠ ألف نسمة طبقا لتعداد ١٩٧٦ ، ويكاد يقترب عدد النساء من عدد الرجال ومعظمهم يدينون بالاسلام ماعدا ١٧٨ فردا يدينون بالمسيحية ينتسبون الى عائلة « بشاى » ، وهؤلاء

---

(٢) Relaph Linton, The three of culture., New york. 1955. p. 3

Dorthy Lee. The cultural curtain., Annals. 122. May 1959

Herskovits. A., Cultural Anthropology. Newyork — 1955. pp 94-95



شكل رقم (٣)
ريفية من بنى هلال
تعمل بصناعة الحصر

بعملون بالزراعة والتجارة • ويؤرخ لمجيء هؤلاء الى قرية بنى هلال فى عصر « سعيد باشا » حينما استعان بهم احد أفراد عائلة « العادلى » مع بعض العبيد فى زراعة أرضه بعد أن انشق عليه أخواته ـ من غير الأم ـ ومنعوا المزراعين عنها • وتقديرا لعون هؤلاء معه تنازل لهم عن جزء من أرضه فانتقلت ملكيتها اليهم وأصبحت تورث فيما بينهم جيلا بعد جيل •

أما بالنسبة للجانب التعليمى فيغلب على أهل القـرية طـابع الأمية العالية التى تصل الى حوالى ٨٠ ٪ بين الذكور وتزيد بما يصل الى نسبة ٩٩ ٪ بين الاناث •

والواضح أن « بنى هلال » موزعون فى القرية على ٢٣ بدنه وان كانوا بطلقون عليها « عائلة » وسـنتناول هذه التعـريفات بالتفصيل فى سـياق دراستنا •

وتبلغ الوحدات السكنية بما يزيد عن ١٩٨٤ وحدة الطابع المميز لها الطابق الواحد ماعدا قلة مكونة من طابقين وهى تمثل بيوت أثرياء القريـة • والملاحظ أن بعض الواحدات السكنية قد شيدت بأسلوب بدائى من « اللبن ـ الطوب النىءعلى هيئة اكواخ » وهذه يملكها فقراء القرية وقد اقاموها بأيديهم فى أطراف القرية • ولكل بدنة فى القرية مظهرا واضحا فى تكتل مساكنها حول دار ضيافتها ومسجدها • ويفصل بين كل تجمع سكنى للبدنات مساحة كبيرة الى حد ما للتجمع والاشتراك فى المناسبات المختلفة ويطلق عليها فسحه •

ويبلغ عدد مساجد القرية ١٧ مسجدا يمثل كل منها أحد البدنات ماعدا المسجد الكبير التى أشتركت فى تكاليف بنائه ٦ بدنات بالاضافة الى تبرعات بعض أفراد البدنات الأخرى • وأصبح مجالا دنيا للجميع •

أما سوق القرية فموقعه شمال القريه بالقرب من ضريح الشيخ محمود سليم وموعـده مع صبـاح كل يوم جمعـه ويقوم فيـه الرجـال والنساء

بالبيع والشراء سواء ما كان منها فى مجال تجارة الاغنام والماشيه ، أو المنتجات الزراعية أو الصناعات اليدوية ٠

والملاحظ أن المؤسسات الخدمية فى القرية تتمثل فى نقطة للشرطة ، ووحدة صحية ، وجمعية استهلاكية ، ومدرسة ابتدائية مشتركة تمثل فيها نسبة الأناث ٢٠ ٪ من عدد الذكور ٠

ولعل من أهم المظاهر الشائعة فى القرية انتشار التلفزيون فى مقاهى القرية ، خاصة بعد أن أدخل التيار الكهربائى بها عام ١٩٧٩ ٠ فأصبح وسيلة قوية لجذب أكبر عدد من شباب القرية وأطفالها حوله وأصبحت سهراتهم تمتد بانتهاء برامجه بعد أن كانوا قبل هذه الفترة يأوون الى بيوتهم بعد صلاة العشـــاء ٠

الآن يمكننا القول أن تعرضنا لظروف البيئة لا يعنى أنها مجرد سرد وصفى بقدر ما هى محاولة نستند عليها فى تصوير التفاعل والتأثير المتبادل بين هذه الظروف بالمظاهر الثقافية لأهالى قرية « بنى هلال » ٠

وبلرغم من ادراكنا أن المجتمعات القروية فى الصعيد تكاد تتشابه فى نمط ثقافى واحد الا أن معايشتنا الحقلية فى هذه القرية والتى امتدت فى الفترة من أول شهر ديسمبر ١٩٨٠ الى نهاية شهر ابريل ١٩٨١ قد كشفت عن حقيقة مؤداها أن « أهل » هذه القرية مازالوا يسلكون فى عاداتهـــم وتقاليدهم مسلكا ثقافيا مميزا عن باقى القـرى المجـاورة ، وهم فى ذلك يتصورون أن ثقافتهم هذه جزء من تراثهم التاريخى الذى يرتبط بسيرة بنى هلال ٠ ولعل ذلك ما يجعلنا نؤكد على أهمية الاستفادة من المعطيات التاريخية لهذه السيره فى فهم حقيقة الواقع الاجتماعى لقرية بنى هلال ٠ ولا نعنى بهذا اننا استندنا الى هذا الفهم على ما تناوله المؤرخون فى كتاباتهم فحسب بل اعتمدنا أيضا على ما نقله الرواه من شيوخ القرية وعلى تقارير الاخباريين وكذلك السجلات الرسميه ٠

ومن الطبيعى ان الدراسة لم تقف عند هذا الحد ، فالملاحظة المباشرة كانت أمرا تفرضه منهجية البحث • والملاحظة بدون مشاركه ــ التى أنتهجتها الدراسة بقدر ما كانت تحاول الكشف عن رؤيا طبيعيه لنشاط أفراد الجماعة سجلتها فى تقارير مكتوبة وتسجيلات صوتيه وتصوير فوتوغرافى الا أنها كانت فى حاجة الى الوقوف على فهم العلاقات القائمة بين أجزائها • ولادراك هذه الحقيقة استعانت الدراسة باللقاءات المفتوحة مع كبار السن من الرجال والنساء لفهم حقيقة ممارسة بعض العادات والتقاليد فى مجتمع القرية •

وبقدر ما أسهم كبار السن من أفكار حول العادات والتقاليد فيها فقد شارك أيضا ببعض الأراء حول ثقافة مجتمع هذه القريه من لهم علاقات وظيفية أو قرابية بها فكان منهم القاضى ، والمحامى ، وضابط الشرطه ، والمدرس وطالب الجامعه ، ورجل السياسة الشعبية •

٢ ــ علم التاريخ والظواهر الاجتماعية •

على الرغم من أن المنهج العلمى بمعناه المعروف اليوم لم يظهر الا حديثا الا أن التاريخ يدلنا على أن كثيرا من المفكرين قد دعوا الى استخدام مناهج منظمة فى دراسة المسائل الاجتماعية وان كانت تلك المناهج المنظمة لاترقى الى المنهج العلمى الحديث ولكنها كانت تتضمن الاستقراء والاستدلال وغير ذلك من الطرق التى تؤدى الى فهم الحياة الانسانية بما فيها من مشكلات • وقد كان ابن خلدون سباقا فى هذا المجال فنادى بضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية لالمجرد وصفها أو الدعوة اليها أو بيان ما ينبغى أن تكون عليه • وهو ما لجأ اليه السابقون عليه أمثال الغزالى والماوردى وأفلاطون وأرسطو وغيرهم خ ولكن يجب دراسة تلك الظواهر بتحليلها بطريقة تساعد على الكشف عن طبيعتها والأسس التى تقوم عليها والقوانين التى تسيرها بمعنى أنه يجب دراسة تلك الظواهر بالطريقة التى يدرس بها العلماء ظواهر الفلك والطبيعة

والكيمياء ووظائف الاعضاء وغير ذلك من العلوم (٣) ٠

والواقع أن سبق ابن خلدون هنا يتمثل فى ادراكه أن الظواهر الاجتماعية لا تسير اعتباطا وانما هى تخضع لنظام معين وقوانين ثابتة ومطردة وهذا الأمر لم يفطن اليه أحد من قبله مما دعاه الى تأكيد ذلك فى الكتاب الأول من مؤلفه ـ كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » ٠ ولقد أوقف ابن خلدون مقدمته هذه على الظواهر الاجتماعية وجعلها الموضوع الأساسى فيها ، وأوضح ضرورة اتباع منهج معين فى دراست تلك الظواهر ، وخلص من خلال بحوثه فيها الى انشاء علم جديد لم يعرض له احد من قبله وهو علم العمران البشرى أو الاجتماع الانسانى وهو ما يعرف اليوم بعلم الاجتماع Sociology وقد حدد «ابن خلدون» القواعد المنهجية التى يجب استخدامها فى دراسة المجتمع والتى تضم الملاحظة والمنهج المقارن ولم يتحدث « ابن خلدون » عن هذه القواعد حديثا نظريا فقط وانما استفاد من خبرته الطويلة وأسفاره المتعددة واستقرائه للأحداث فى صياغة أسلوب البحث الذى نادى به كما أدرك الجوانب الديناميه والاستاتيكية للظواهر الاجتماعية وذلك بقوله « فأحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والامصار فكذلك يقع فى الآفاق والاقطار والأزمنة والدول (٤) ٠

والى جانب ذلك نهج ابن خلدون المنهج التاريخى فى بحوثه وربط بين التاريخ وعلم العمران البشرى ٠ « فتناول ضمن وصفه لأحوال الشعوب تاريخ

---

(٣) على عبد الواحد وافى ٠ عبد الرحمن بن خلدون ٠ مكتبة مصر ٠ ١٩٦٢ ص ١٤٨ ـ ١٥١٠

(٤) على عبد الواحد وافى ٠ عبد الرحمن بن خلدون ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ٠ ص ١٧٧ ، ١٧٨ ٠

« بنى هلال » وهجراتهم الى مصر وغزواتهم التى وصلوا بها الى شمال افريقيا » .

ولقد كان منهج ابن خلدون فى دراسته الاعتماد بصفة عامة على ملاحظة الظواهر الاجتماعية التى أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها ، وعلى تعقب هذه الظواهر فى تاريخ هذه الشعوب نفسها فى العصور السابقة لعصره، وتعقب أشباهها ونظائرها فى تاريخ شعوب اخرى لم يتم له الاحتكاك بها

ولاالحياة بين أهلها ، والموازنة بين هذه الظواهر جميعا ، والتأمل فى مختلف شئونها للوقوف على طبائعها وعناصرها وصفاتها وما تؤديه من وظائف فى حياة الأفراد والجماعات ، والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض ، والعلاقات التى يربطها بماعداها من الظواهر ، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور ، ثم الانتهاء من هذه الأمور جميعا الى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر فى مختلف شئونها من قوانين .

وقد تعرض ابن خلدون للصعوبات التى تقابل الباحث الاجتماعى عند استخدامه للمنهج التاريخى نتيجة لعدم صدق بعض الروايات التاريخية ، فبعضها صحيح حدث فعلا وبعضها زائف لم يقع أصلا ، وبعضها يستحيل حدوثه بما لا يتفق مع طبائع الأشياء ولذا نصح ابن خلدون بعدم الثقة بالناقلين ثقة مطلقة وتحرى الدقة عند الرجوع الى المصادر التاريخية ونادى بتحقيق الوقائع وتمحيصها قبل الأخذ بها ، وهو بذلك يلفت الأنظار الى أهمية استخدام القواعد العلمية فى دراسة الظواهر الاجتماعية .

٣ ـ علم التاريخ والمنهج التاريخى :

فطن ابن خلدون الى أن الظواهر الاجتماعية لاتثبت على حال واحد بل تختلف أوضاعها باختلاف المجتمعات ، وتختلف فى المجتمع الواحد باختلاف

العصور • فمن المستحيل أن نجد مجتمعين يتفقان تمام الاتفاق فى نظام اجتماعى معين وفى طرائق تطبيقه ، كما أنه من المستحيل أن نجد نظاما اجتماعيا قد ظل على حال واحدة فى مجتمع معين فى مختلف مراحل حياته •

ولذا طالب ابن خلدون بملاحظة الظواهر ملاحظة مباشرة ، ثم تعقب الظاهرة الواحدة فى تاريخ الشعب الواحد فى مختلف الفترات التاريخية مع تحرى صدق الروايات التاريخية وقياس الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران وهو بذلك يوجه الباحث نحو استخدام المنهج التاريخى للوصول به الى الحيادية وصدق المعلومات •

ومن الضرورى هنا أن نفرق فى هذا المجال بين علم التاريخ وبين استخدامنا للمنهج التاريخى • فمهمة علم التاريخ أن يقوم بوظيفة مضادة لفعل التاريخ الذى يسير قدما دون تراجع أو تخلف ، وهذه الوظيفة هى محاولة استرداد ما كان فى الزمان ، لاليتحقق فعليا فى مجرى الأحداث ، وانما لكى يستعيد فى الذهن وبطريقة عقلية حرة ماجرت عليه أحداث التاريخ فى مجرى الزمان محاولا أن يتصور مجرى هذه الاحداث وكأنه يجرى فى اطراء موجه (٥) •

٤ ـ المنهج التاريخى فى البحوث الاجتماعية :

يستخدم المنهج التاريخى فى البحوث الاجتماعية بقصد الوصول الى مبادىء وقوانين عامة عن طريق البحث فى أحداث التاريخ الماضية وتحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات الانسانية والقوى الاجتماعية التى شكلت الحاضر • ونحن برجوعنا الى تاريخ بنى هلال فانما لا نهدف من دراستنا تصوير أحداثهم وشخصيات أبطالهم بصورة تبعث فيهم الحياة من جديد وانما نحاول تحديد الظروف التى أحاطت بهذه الجماعة وكيف نشأت لمعرفة طبيعتها وما تمخض

---

(٥) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعى • ط ٧ ـ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨٠ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ •

عنه واقعها الاجتماعى الذى يتمثل فى سلالاتهم الذين مازالوا يعيشون على ذكريات أسلافهم .

وتعبر بلوين يونج P. young عن هذا المعنى بقولها : أننا فى البحث الاجتماعى نتعقب التطور التاريخى لكى نعيد بناء العمليات الاجتماعية ونربط الحاضر بالماضى ونفهم القوى الاجتماعية الأولى التى شكلت الحاضر بقصد الوصول الى وضع مبادىء وقوانين عامة متعلقة بالسلوك الانسانى للأشخاص والجماعات والنظم الاجتماعية (٦) ولعل هذه المعانى هى ما يذهب اليها «دوركايم» فى تأكيده على أهمية الدراسات التاريخية لماضى المجتمع لكى نفهم حاضره . فالماضى وقد خلفت لنا أثره على شكل وثائق وسجلات وأصول أثرية لمؤسسات ونظم اجتماعية يمكن للمؤرخ أن يبنى عليها دراسته فالماضى على الصورة التى وجدت بها أحداثه لا يمكن ادراكها طالما أن المجتمع تشمل سيرته حالات عديدة تظهر فيها الخصائص الفردية ، واذا ما حاولنا الاحاطة بذلك المجتمع بشموله ، نستطيع أن نجزم على استحالة تكرار تلك الحالات الفردية ، ولو أنها تظهر شيئا من التناسق الموقوت ولكنه تناسق وحيد وفريد . ومن هنا يبدو التساند بين التاريخ وعلم الاجتماع ، فكلاهما يهدف موضوعا واحدا (٧) ، فالنظريات التى يقدمها علم الاجتماع حول الحضارة والتغير الحضارى والخط العام لسيرة المجتمعات البشرية تعطى للمؤرخ مواد انسانية حقيقية كما كما أن التاريخ ما انفك يعمل على انماء التراث ويلقى الاضواء الساطعة على تاريخ الانسان وحضارته التى يمكن أن توضح الطريق أمام علم الاجتماع . ومعنى ذلك أن أبعاد التاريخ هى أبعاد علم الاجتماع وبذلك يتسقان معا أتساقا متكاملا ، فالزمان والتاريخ يفرض كلاهما ذاته على الواقع بل أنهما يفرضان وجودهما على كل العلوم الانسانية للسير فى طريق مشترك لدراسة قضايا مشتركة (٨) .

---

(٦) عبد الباسط محمد حسن . المصدر السابق ، ص ، ٢٦٩

(٧) Aron, R., Introductioon ala philosophi de L'histoire N.F.R. pp 80

(٨) Walsh, W.H., Philosophy of history, an introduction, Harper torch Books, N.Y. 1960. pp 48-51

والواقع أنه اذا كانت حقائق التاريخ نتاجا لدراسة المؤرخ ومصدرا المعطيات الباحث فى علم الاجتماع فان هذه الحقائق بالنسبة للمؤرخ نهاية الطريق ، ولكنها بالنسبة للباحث فى علم الاجتماع بداية طريقه فى البحث الاجتماعى (٩) ٠

٥ ـ الأنثروبولوجيا بين التاريخ والعلوم الاخرى :

التاريخ بالمعنى الواسع محاولة لوصف أحداث الماضى بأكبر قسط ممكن من الدقة والواقعية والضبط ، ولاقامة تتابع لتلك الأحداث ولرسم صورة لأى طرازات تكتشف فى ذلك التتابع ، ولذا فهو طريقه فى البحث بقدر ما هو علم مستقل ، كما يترتب على هذا أن يكون للأنثروبولوجيون جانب تاريخى خاص بدراستهم ٠ فالطريق الذى سلكه التطور البشرى وانتشار افراد ذلك النوع على وجه الارض وتطور الحضارات ان هى الا بحوث تاريخية (١٠)

لقد اهتمت الأنثروبولوجيا بمجتمعات وثقافات لم تهتم بها العلوم الموجودة فعلا ، ولهذا تصب بحثها على تلك المجتمعات التى توصف أحيانا بالبدائية أو المتوحشة أو البربرية ٠ ولكن هذا لم يمنع الأنثروبولوجيا من أن تنمى مناهجها ومداخلها لدراسة المجتمعات البسيطة نسبيا ٠ وعلى الرغم من التغيرات الجوهرية التى حدثت فى التوجيه الموضوعى ومناهج البحث فان الأنثروبولوجيا لا تزال تركز على دراسة المجتمعات البدائية ولذلك عندما حول الأنثروبولوجيون اهتمامهم الى حد ما ـ الى دراسة المجتمع الغربى المعاصر ، فانهم يتلمسون السبيل اليه ـ ما أمكن ذلك كما لو كانوا يدرسون مجتمعا

---

(٩) محمد عارف ٠ المنهج فى علم الاجتماع ٠ الجزء الاول ـ المنهج الكيفى والمنهج الكمى فى علم الاجتماع ٠ دار الثقافة للطباعة والنشر ٠ ١٩٧٢٠ ص ١٦ .

(١٠) كلويد كلوكهون ٠ الانسان فى المرآة ٠ علاقة الانثروبولوجى بالحياة المعاصرة ٠ ترجمة ٠ شاكر مصطفى سليم ٠ المكتبة الاهلية ٠ بغداد عام ١٩٦٤ ص ٥٣٨ .

بدائياه ومثال ذلك ما يقوم به الأنثروبولوجيون الأمريكيون فى دراسة التجمعات والثقافات الفرعية فى المجتمع الامريكى •

ويلاحظ من يتتبع نمو الأنثروبولوجيا ، أن الباحثين فيهـا لايزالون يفضلون دراسة الشعوب المعزولة التى تعيش على هامش المدينة الكبرى •

ولعل أهم تطور حدث فى الأنثروبولوجيا فى السنين الأخيرة ذلك الاتجاه الذى ينمو بسرعة ويتركز حول الاهتمام بدراسة تجمعات أكثر تعقيدا كالقرى والمجتمعات المحلية القروية • وقد تدرس هذه القرى باعتبارها مناطق معزولة أو قد تدرس على أنها جزء من مركب حضارى معقد •

وهناك من يفضل اطلاق اسم « الأنثروبولوجيا الثقافية » على فروع الأنثروبولوجيا التى تقوم بدراسة موضوعات اجتماعية وثقافية • كما أن تقسيم الأنثروبولوجيا الثقافية على أساس الموضوعات ذات الأهمية ، أدى الى ظهور مجموعتين كبيرتين من الدراسات الأولى ، تشير الى الميادين التى يغلب عليها الناحية الوصفية والتاريخية ، والثانية تشير الى الميادين التى يغـلب عليهـا التحـليل الاجتماعى وتشـمل المجموعـة الأولى الأثنولوجيـا Ethnology وهى الدراسة النظرية والمقارنة للعادات الانسانية واثنوجرافيا Ethnoprophy وهى وصف الثقافات المفردة ، والآثار Archaeology وهي وصف بقايا الثقافات الماضية أو القديمة • أما المجموعة الثانية فتسمى

الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، التى تسمى فى بعض الأحيان علم الاجتماع المقارن وهى تهتم فى المحل الأول بدراسة البناء الاجتماعى والتنظيم أكثر من اهتمامه بدراسة العادات ومن خصائص الأنثروبولوجيا المعاصرة أن الباحث قد يهتم فى نفس الوقت بهـاتين المجموعتين من الميادين ، أى أنه يجمع الحقـائق ويفسرها ، وقد تكون هذه الحقائق تاريخية أو غير تاريخية •

ويلاحظ أن كلا من المجموعتين على صلة وثيقة بالعلوم الاجتماعية ،

الا أن صلة المجموعة الأولى بالتاريخ واضحة ، كما ان صلة المجموعة الثانية (الأنثروبولوجيا) أشد ما تكون بعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى (١١)٠

واذا ما تناولنا العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس نجد أنهما بمثابة الجسران الرئيسيان الموصلان بين علوم الحياة والدراسات المتعلقة بالسلوك البشرى ٠ فعلماء وظائف الأعضاء والطب يدرسان الانسان بصفته حيوانا ٠ وتدرس علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة أعماله ونتائجها ٠ ولا يوجد من العلوم ما يجمع بين هذين الأسلوبين الدارسين غير علوم النفس والأمراض العقلية والأنثروبولوجيا لانها مهتمة بالسلوك البشرى وبأسسه المعيشية فى الوقت نفسه ٠ ويشبه ذلك أن علمى الأنثروبولوجيا والجغرافيا البشرية يساعدان على سد الثغرة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ٠ فكل من عالم الأنثروبولوجيا وعالم الجغرافية يعنى بدراسة تكيف الانسان للطقس وللموارد الطبيعية وللموقع الجغرافى (١٢) ٠

ويتميز عالم الانثروبولوجيا الطبيعية بين العلماء كافة الذين يدرسون الانسان بصفته حيوانا ، بأنه يصبر على القيام بالقياسات وعلى دراسته لأمثلة ذات أعداد كبيرة ٠ ولا يملك عالم دراسة الحيوانات المتحجرة او المنقرضه — فى الغالب — الا عددا قليلا من النماذج ليدرسها ٠ ولم يتبين الباحثون فى العلوم الطبية باستثناء العاملين فى ميدان الصحة العامة ، ضرورة استخدام الاحصاء فى بحوثهم الا فى وقت متأخر ٠ ولقد بدأ علماء التشريح ، بتأثير من الأنثروبولوجيا الطبيعية استعمال الأرقام والخطوط البيانية لتوضيح الاختلافات فى الجسم البشرى ، ولكنهم مازالوا مولعين بتقطيع وتشريح الجثث من آن لآخر ٠ ويختلف الأنثروبولوجى عن الطبيب فى أن الأول يدرس الانسان الصحيح أكثر مما يدرس الانسان المريض ٠

---

(١١) محمد عاطف غيث ٠ علم الاجتماع ٠ دار الكتب الجامعية ١٩٧٣٠ ص ١٧٥ — ١٧٦ ٠

(١٢) كلويد كلوكهون ٠ المصدر السابق ص ٥٣٩ ٠

والفرق الظاهر بين عالم النفس والأنثروبولوجى يتأتى أساسا من حقيقة كون الأول يركز نظره على الفرد فقط فى حين أن الثانى يركز على المجموعة وعلى الفرد باعتباره عضوا فيها •

والفرق بين الأنثروبولوجى وعالم الجغرافيا هو كذلك فرق فى التركيز والتأكيد فالجغرافى لا يهتم بدراسة الأفراد الا عرضا • فهو لا يعنى بدراسة الأجسام البشرية ولا بالاحصائيات المعيشية الا فى الحدود الذى تبدو فيها تلك الأجسام والاحصائيات مؤشرا فى نطاق دراسته عن درجات الحرارة أو صفات التربة • أما بصدد العبادات والفنون والعادات المتعلقة باللغة وهى موضوعات تثير فضول الأنثروبولوجى واهتمامه الا أن الجغرافى لا يعيرها الا اهتمامات متواضعة •

واستنادا الى حقيقة كون الأنثروبولوجى وعالم الاجتماع يهتمان فى الظاهر فى كثير من الحالات فى المشكلات نفسها ، فان المدى الذى يحافظ كل منهما فيه على أسلوب متميز بصورة أساسية عن الآخر هو أحد الحقائق شديدة الغرابة فى تاريخ الفكر الغربى •

ان سلوك عالم الاجتماع يميل نحو التطبيق والزمن الحاضر فى حين أن سلوك الأنثروبولوجى يميل نحو الفهم الخالص والزمن الماضى • وربما يرجع ذلك الى أن علم الاجتماع قد تفرعت أصوله من علم اللاهوت والفلسفة حيث سيطر التعليل العقلى لمجرد سيطرة مطلقة • وكان لعلماء الاجتماع صلات شخصية كثيرة بالعاملين فى الحقل الاجتماعى والمصلحين الاجتماعيين والفلاسفة • ومن جهة أخرى ، فالأنثروبولوجيون متعصبون للمشاهدة الخالصة • وهم حتى الآن ، لسوء الحظ ، لا يثقون كثيرا مما يقال عن المفاهيم والأساليب والنظريات •

ولقد نقد الأنثروبولوجيون علم الاجتماع نقدا جارحا بأن وصفوه بأنه « العلم الذي بلغ الحد الأقصى بعدد الطرائق والحد الأدنى بالنتائج » • وبينما

يظل تعبير « عالم الاجتماع » نعتا أو لقبا فى أفواه علماء الأنثروبولوجيا يطلقونه على من لا يتفق معهم فى التفكير والمعالجة والاستنتاج فان علماء الطبيعة ، (الفيزياء ، الكيمياء ، طبقات الارض ، الخ) وعلوم الحياة ، (النبات ، الحيوان ، الطب ، الخ) استمروا فى السنوات الأخيرة على الاقتراب بعضهم من بعض بشكل ملحوظ ٠

ولقد أعجب الأنثروبولوجيون منذ زمن ، ولحد كبير ، بانتاج بعض علماء الاجتماع الأوربيين الكبار ، مثل أميل دوركايم ، لدرجة أنهم حاولوا أن يدعوا أن أولئك العلماء كانوا علماء انثروبولوجيا وما كانوا علماء اجتماع (١٣)٠

٦ ـ دراسة الجماعة فى الأنثروبولوجيا :

لقد أثبتت فكرة الأنثروبولوجيا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، على أن مهمتها دراسة الطرق التى يتكيف بها الانسان مع بيئته الطبيعية والاجتماعية وتحدد منهج الأنثروبولوجيا بمنهج الملاحظة ٠

كما تحدد موضوع الأنثروبولوجيا فى أواخر القرن التاسع عشر فأضحى دراسة أشكال الحياة الاجتماعية فى المجتمعات البدائية ، كما يبدو هذا فى كتاب « تايلور » ومالبثت الأنثروبولوجيا أن تناولت الحضارة بالدراسة سواء فى أشكالها البدائية او المتحضرة (١٤) ٠

ويذهب «ايفانز بريتشارد» أن النظرية الأنثروبولوجية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت تخفى تحتها تيارا من الافتراضات والدعاوى السيكولوجية ولكن مع أن كتاب ذلك العصر كانوا يفترضون الافتراضات

---

(١٣) كلويد كلوكهون ٠ المصدر السابق ص ٥٣٥ ـ ٥٤١ ٠

(١٤) غريب محمد سيد احمد ٠ المدخل فى دراسة الجماعات الاجتماعية ٠ دار الكتب الجامعية بالاسكندرية ١٩٧٣ ٠ ص ٦٤ ٠

النظرية عن الطبيعة البشرية ويبدو أنهم كانوا مضطرين لذلك ــ الا أن أحدا منهم لم يزعم انه يمكن فهم العادات والنظم بالاشارة الى المشاعر والدوافع الفردية • والحق انه يمكن فهم العادات والنظم بالاشارة الى المشاعر والدوافع الفردية • والحق انهم كثيرا ما كانوا يرفضون بصراحة مثل ذلك الزعم • وعلى حد قول « ريتشارد » « انه يجب أن نتذكر ان ما نسميه الآن بعلم «النفس التجريبى» لم يكن له وجود فى ذلك الوقت،حتى أن بعض الانثروبولوجيين المحدثين نسبيا ، مثل « تايلور وفريزر »،حينما ارادوا الاستعانة بعلم النفس فى دراستهم اتجهوا الى علم النفس الترابطى ، فلما خبا بريق هذا الاتجاه فى علم النفس بدا تخلفهم متمثلا بوضوح فى تلك التأويلات العقلية الباطلة التى استمدوها من تلك النظريات •

كذلك تخلف عن الركب فيما بعد ، وبنفس الطريقة ، بعض العلماء الآخرين الذين اعتمدوا على علم النفس الاستنباطى • وهو يعنى به كتابات ماريت Marett ومالينوفسكى Malinowski وغيرهما فى انجلترا ، ولوى Lowie ورادين Radin وبعض العلماء الآخرين فى امريكا ، والتى تناولوا فيها بعض موضوعات معينة كالدين والسحر والتابو والشعوذة • ولقد حاولوا كل هؤلاء الكتاب أن يفسروا ــ بشكل أو بآخر ــ السلوك الاجتماعى المتعلق بالمقدس Sacred على أساس المشاعر أو الحالات الانفعالية كالكراهية والجشع والحب والخوف والرهبة والدهشة والاحساس بوجود عالم الغيب والقوى الخارقة للعادة واسقاط الارادة وماإليها • ويظهر هذا السلوك فى المواقف التى تتميز بالاجهاد الانفعالى أو الزمت أو التوتر ، كما أنه يهدف الى التطهير أو التعويض أو الاستثارة • وقد بين تطور مختلف النظريات التجريبية الحديثة فى علم النفس أن هذه التأويلات يداخلها كثير من الخلط وعدم الترابط ، كما أن فيها من اللغو والهراء • ومع ذلك فان المصير الذى لاقاه العلماء السابقون لم يروع بعض الانثروبولوجيين المحدثين ــ وخاصة فى امريكا ــ عن محاولة صياغة النتائج التى وصلوا اليها فى ذلك الخليط من

علم النفس السلوكى والتحليل النفسى ، وهو ما يطلق عليه اسم سيكولوجية الدوافع والاتجاهات .

وهناك اعتراضات كثيرة توجه من ناحية الى كل من تلك المحاولات المتتالية لتفسير الحقائق الاجتماعية فى حدود علم النفس الفردى ، كما أن هناك اعتراضا واحدا عاما يصدق عليها كلها • ومؤدى هذا الاعتراض العام هو أن علم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية يدرسان نوعين مختلفين من الظاهرات ، وأن ما يدرسه أحدهما لا يمكن فهمه على أساس النتائج التى توصل اليها الاخر • فعلم النفس يدرس الحياة الفردية بينما الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس حياة الانسان الاجتماعية ، وقد يلاحظ عالم النفس وعالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية نفس الافعال فى السلوك الواقعى ، ولكنهما يدرسان تلك الأفعال على مستويات مختلفة من التجريد (١٥) •

وبالرغم من تلك الاختلافات الممكن وجودها فى شتى التجمعات الاجتماعية التى يحتويها العالم ، فان ثمة نموذجين – على الاقل – موجودين فى كل مجتمع انسانى • وتعتبر الأسرة أحد هذين النموذجين ، فكل انسان ينتمى الى أسرة والى مجتمع محلى • وعليه يكون النموذج الثانى من الجماعة ، أكثر عمومية للانسان هو المجتمع المحلى •

ويضع الانثروبولوجيون مفهومات حول المجتمع المحلى فيطلق اسم القوم Horde وذلك من زاوية وصف التنظيم الاجتماعى لرجال القبائل الأسترالية مثلا كما يستخدم لفظ Band زمره للاشارة الى الجماعة المحلية ، وخصوصا فى الكتب التى تدور حول هنود امريكا ، وفى الحضارات القديمة الاوربية منها والشرقية يعرف المجمع المحلى على انه « القرية – Village وفى انجلترا يتكلم الكتاب عن المجتمع المحلى على أنه « الجوار Neighborhood

---

(١٥) أحمد أبو زيد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية • ط ٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٦٣ – ٦٥ •

ان الفكرة الجوهرية بغض النظر عن الاعتبارات الاصطلاحية هى أن جماعة من الناس يعيش كل منهم فى منطقه محددة ، متعاونين بقدر معين ؛ ولربما تكون المنطقة كبيرة أو صغيرة ، بيد أن كل أسرة فى تلك المنطقة تعرف غيرها من الأسر ، أو على الاقل تعرف الاهتمامات العامة التى تقوم تلك الأسر من أجلها بطرق معينة لمقابلة المشكلات المتبادلة • ان الفعل المتبادل Mutual action الذى يشتركون فيه لمقابلة مشكلات عامة يكون انجازها من السهولة عما اذا كانت تلك المشكلات تخص جماعة معينة بالذات• وفى اعادة تماسك افراد الجماعة واشتراكهم فى فعل معين ، فانما يشعرون بنتاج ما يفعلون ، كما أنهم من وجهة أخرى يستعدون ويؤدون العمل سويا مستقبلا • ولكل أسرة فى الجماعة المحلية عادات معينة تختلف عمن يجاورها من أسرة بيد أن جميع الأسر تشترك فى عادات عامة ، وخاصة عند علاقة كل منها بالاخرى • وبالمثل فلكل جماعة بعض الخصوصيات Peculiarties مع أن الجميع متفقون على بعض الطرائق العامة •وخاصة تلك التى تحكم علاقات الجماعات المحلية • أن حجم الجماعة المحلية ومدى المنطقة التى تشغلها يعتمد الى حد كبير على كيفية امكانية الحياة عن طريق المجتمع المحلى •

فالمجتمع المحلى يحتوى على ثقافات ومعتقدات وطرائق عامة معروفة • ويتكون المجتمع المحلى والقبيلة والدولة حينما يرتفع الموقف العام الذى فيه يتشابه من يعيشون فى نفس المنطقة من ناحية الاهتمامات والمشكلات • وكذلك فثمة جماعات تقوم على تبادل تلك الاهتمامات والمشكلات ، وأغلب هذه النماذج تعتمد على السن أو العمر • فالأشخاص من نفس السن ، فى أى مجتمع محلى ، يتجهون الى التجانس والتعاون • ويختلف تقسيم فئات العمر باختلاف المجتمعات ، بيد أن كل المجتمعات تعرف على الاقل ثلاث تقسيمات فى حياة الفرد ، وتعتبر ذلك التقسيمات أساسية للتنظيم الاجتماعى — ويكون التمييز فى ذلك بين الأطفال والبالغين والمسنين وكل فرد فى المجتمع المحلى يعرف مكانه فى التقسيم •

ويخرج الأنثروبولوجيون بتفسيرات عديدة تجاه قواعد النسب (الانحدار) والميراث « فجونسون » مثلا ، يرى أنه فى انجلترا ، يرتبط الأقارب العاصبين فى العادة ارتباطا بيولوجيا ، وهذا ما يطلق عليه اسم الأقارب من ناحية الدم. بينما فى مجتمعات أخرى يكون الأقارب العاصبين مرتبطين سويا عن غير الطريق العام ، وانما عن طريق التخيل الاجتماعى Social Fiction وبالرغم من ذلك فليس ثمة مجتمع لا يعرف الذات أو النفس ego على انها اقارب بنسبة ذلك الى العلاقات الوراثية • ومع كبر المجتمع فقد يضحى لفرد أقرب من ناحية الدم ، وهم مع ذلك غرباء عنه • وقد يكون للنفس أو الذات (الفرد) أربعة أجداد أو ثمانية أو ستة عشر جدا فى نفس الجيل ويعتبر كل من هؤلاء ذات يطلق عليها الاقارب عن طريق الدم •

ويعرف الانسان أقاربة العاصبين ـ الذى يرتبط معهم عن طريق نسق القرابة ـ أو الذين سوف ينظر اليهم من الزاوية العاطفية • ويقدم لهم مختلف المساعدات وقت الحاجة • وتعتمد اهميتها على حقيقة أنهم قليليون من حيث العد وذلك بمقارنتهم بكل سكان المجتمع (١٦) •

٧ ـ بنو هلال ونسق القرابـــة :

ولما كانت العائلة هى الوحدة الرئيسية فى بناء القرية فانه من المناسب ان نصنف علاقات القرابة المتصلة بها ليمكن ادراك أبعادها كما هى موجوده فعلا • لأن تغير هذه الأبعاد ، أو بمعنى آخر ، كثافة العلاقات المتعلقة بهذه الأبعاد ، علامة هامة من علامات التغير الاجتماعى فى العائلة خاصة ، وفى القرية بصفة عامة ، ولهذا تناول « عاطف غيث » كلمة العائلة فى مقابل الكلمة الانجليزية Extended family بصورة لا تختلف عن استخدام « عمار » لها فى قرية « سلوا » أو « دوبيه » فى قرية « شاميريت » Shamirpet فى « الهند » أو « يانج » « فى قرية » تايتو » taito فى الصين لتشير

---

(١٦) غريب محمد سيد أحمد • المصدر السابق • ص ٦٣ ـ ٦٥ •

الى الجماعة التى تقيم فى مسكن واحد ، وتتكون من الزوج والزوجة وقولادهما الذكور والاناث غير المتزوجين ، والأولاد المتزوجين وآبائهم وغيرهم من الاقارب ، كالعم او العمة والابنة والأرامل الذين يقيمون فى نفس المسكن ويعيشون حياة اجتماعية واقتصادية واحدة تحت اشرف رئيس العائلة ٠

أما كلمة الاسرة Family فاستخدامها ليشير الى الجماعة المكونة من الزوج والزوجة وأولادهما غير المتزوجين الذين يقيمون فى سكن واحد ٠ وطبيعى أن الأسرة تصبح عائلة اذا انتقلت من حالة البساطة السابقة الى حالة التعقيد بوجود اكثر من جيل واحد فيها ، أى بزواج ابن وبقائه معتمدا اجتماعيا واقتصاديا على والده ٠

والعائلة والأسرة فى القرية تمثل علاقات قرابة من الدرجة الأولى ولكن فى كل قرية يرتبط عدد من العائلات أو الأسر برباط آخر يعتبر علاقة قرابة من الدرجة الثانية وهو انتماؤهم جميعا الى أصل جد أكبر واحد فيكونون فى هذه الحالة ما يسمى بالبدنه Lineage (١٧) أو كما يطلقون عليها فى بنى هلال (العائلة) ٠

والبدنة فى القرية أو « العائلة » هى الجماعة القرابية الكبيرة التى تنتمى لها جميع البيوت والبيت يتفرع الى عدد من الأسر المشتركة فى الأصل الواحد ٠ وهم فى بنى هلال موزعين الى عائلات على النحو التالى : اليامنية ـ الجبالية ـ السوالم ـ الدريزات ـ العوامر ـ البيض ـ البكايرة ـ الصماصمة ـ الزهارنة ـ الرضاونة ـ عطا الله ـ عبد الخالق ـ ابو على ـ الزقيمات ـ الشرفة الشرقين ـ العصية ـ الشوش ـ حجازى ـ الشلبيات ـ القور ـ الهنادى ـ الضحاحرة ٠ العادلى ـ العبيدات ٠ المرايرة ٠ العرارية ـ الحميدات ٠

وبالرغم من أن كل بدنه ـ أو عائلة ـ فى قرية بنى هلال تحمل اسما

---

(١٧) محمد عاطف غيث ، المصدر السابق ٠ ص ١١٩ ـ ١٢٠ ٠

لأصل جد واحد الا انهم يتفقون جميعا الى ان جدهم الأكبر هو « ابو زيد الهلالى » وهو الرمز الذى تلتف حوله أفكارهم وأساطيرهم ، كما أن عملهم بالزراعة جعل من الأرض سندا لبقائهم فى هذه المنطقة وساعدهم على تشكيل قوتهم الاجتماعية والدفاعية ضد خصومهم •

والواقع ان هذا التكتل للأفراد الذين يقوم بينهم روابط القرابة العاصبة هو أهم المميزات الواضحة فى القرية وان كانت فى حقيقتها لم تخرج عن خصائص التكتل التى كشف عنها أحمد ابو زيد فى دراسته « لقرية بنى سـميع » (١٨) •

واذا كان هذا التكتل نشأ فى الأصل من الرغبة فى تجمع القوى سواء للدفاع او الهجوم فانه يساعد من ناحية أخرى على الضبط الاجتماعى الداخلى عن طريق اخضاع جميع الاعضاء لسلطان العائلة ككل •

وأخيرا نجد أن مسألة التفاوت فى السن تؤثر تأثيرا واضحا فى حفظ النظام الداخلى فى العائلة من حيث أنه يفرض قواعد وقيود معينة على سلوك الأفراد ازاء من يكبرونهم فى السن ، هؤلاء الذين يكسبون مركزهم المتميز على أساسه قبل أى عامل آخر وهم يشكلون لمجتمع القرية مجلس الشورى فى فض المنازعات واصدار القرارات التى يستوجب احترامها والأخذ بها •

---

(١٨) أحمد أبو زيد ، الثأر ، دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد • دار المعارف بمصر ١٩٦٤ •

الفصل الثانى

الجذور التاريخية لبنى هلال (*)

لقد فرضت الظروف التاريخية والجغرافية على سكان بعض المناطق فى شبة جزيرة العرب ، نوعا من الهجرة والتنقل الى أماكن أخرى ، واضيفت الى تلك الظروف ظروف سياسية ودينية ، حتمت على العرب ، وخاصة البدو منهم الهجرة والارتحال الى منطقة القرن الافريقى ، وساحل شرق افريقيا ، ووادى النيل ، وعلى الأخص صعيد مصر حيث أصبح باب المندب ، وبرزخ السويس ، همزتى الوصل بين الجزيرة العربية وافريقيا وخاصة بعد أن أشار النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه بالهجرة الى الحبشة منذ بدء الدعوة الاسلامية ، ويرسخ هذا المفهوم فى الفكر الاسلامى حينما حث عليه القرآن الكريم فى بعض آياته فى حالة اذا ما وجد المسلمون نوعا من الاضطهاد أو ضيقا فى الرزق فى مكان ما ، فعليهم أن يسعوا الى مكان آخر لعلهم يجدون فيه المتنفس الحيوى . وفى هذا المقام نذكر قول الله « ان الذين توفاهم الملائكه ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتها جروا فيها » صدق الله العظيم .

وفى التاريخ الاسلامى ، حدث نوع من الاضطهاد لبعض القبائل العربية نتيجه لانتهاج بعض خلفاء المسلمين سياسة قبليه ومناصرة احداها على الأخرى ، فيحدثنا التاريخ أن عبد الملك بن مروان استعان ببعض القبائل على البعض الآخر فاضطرت بعض القبائل المهزومة الى الهجرة خارج بلاد العرب ،

(*) د . محمد المهدى صديق

فكان شرق أفريقيا ووادى النيل جنوب مصر مناطق جذب أساسية لتلك الهجرات العربية ٠

وفيما يبدو أن عرب عمان هم الذين أسهموا بنصيب كبير فى الاتصال بالشرق الأفريقى عقب ظهور الاسلام ففى عام ٦٩٥ م قام العمانيون بزعامة سليمان الجلنديين بثورة ضد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، فتصدى ولاة الحجاز المناصرين لتلك الثورة مما جعلها تفشل ، فاضطرت القبيلة المهزومه الى الارتحال الى شرق افريقيا ولعب الحضارمة دورا بارزا فى عمليات الاتصال بالساحل الأفريقى ، وتعاقبت سلسلة من الهجرات العربية الأخرى ٠

ففى عام ٧٤٠ م وفدت الى الساحل هجرة زيدية من اليمن ٠ وفى عام ٩٢٤ م وصلت هجرة عربية أخرى من الاحساء ، حيث اختلطوا بالسكان الأصليين ٠

وليس معنى ذلك أن الهجرات العربية الى منطقة شرق افريقيا بدات مع ظهور الاسلام بل وجد اتصال عربى بافريقيا فى المناطق المذكورة آنفا قبل الاسلام فرضتها عدة عوامل منها تبادل التجارة بين العرب والافارقة منذ التاريخ القديم ، وكذلك انهيار سد مارب عام ١٢٠ م دفع كثير من اليمنين الى مغادرة بلادهم ، كما أن معرفة العرب لأسرار الرياح الموسمية نشطت حركه الملاحة بين الجزيرة العربية وغربى المحيط الهندى ٠

هكذا وجد اتصال وثيق بين الخليج العربى وشبه الجزيرة وأفريقيا زادها اتصالا ظهور الاسلام ٠

كما أن بعض الأحداث السياسية التى شهدها التاريخ الاسلامى منها سقوط الدولة العباسية على أيدى المغول ، وغزو « تيمور لنك » الفارس ، جعلت القارة الافريقية بأسرها تشهد تدافع موجات من هجرات عربية بأعداد غفيرة

لم تشهدها القارة من قبل مما جعل المؤثرات العربية والاسلامية فى افريقيا واضحة المعالم (١) •

ويوجد فى بلاد الصعيد عدة قبائل عربية نزحت أصلا من شبه جزيرة العرب ففى أخيم توجد « بلى » ، وفى منفلوط وأسيوط توجد « جهينة » ، وفى بلاد الأشمونين » قريش ، وفى معظم بلاد البهنسا توجد لواتة ، وتتفرع منها افخاذ بالجيرة والنوفيه والقرامطه بسوهاج وتوجد بالبحيرة وبلاد الفيوم بنوكلاب ، أما قبائل بنى كنانه فانهم ينتشرون فى الشرقية الا أن أكثرها شهرة وذيوعا فى الصيت هى قبائل « **بنى هلال** » ربما يرجع ذلك لأنها أكثر القبائل انتشارا اذ تفرع من بنى هلال عدة بطون استقرت فى عدة أماكن فى الوجهين البحرى والقبلى فتوجد باضميم بنوقرة وبأصفون بنو عقبة وباسنا بنو جميلة ، وبساقية قلتة بنو عمرو ، ولا ينتهى الأمر عند هذا الحد فمنهم أيضا بنو رفاعة وبنو حجير وبنو عزيز وقد أطلق اسم بنى هلال على تلك الأماكن التى استقرت بها منها على سبيل المثال لا الحصر• بنو هلال قرية قديمة فى الشرقية وبنو هلال التابعة لمركز دمنهور بالبحيرة وبنو هلال بقسم سوهاج ، ولهم امتداد فى بلاد أسوان وجنوبها •

« وبنو هلال » هؤلاء بطن من بطون بنى عامر الذين يقيمون فى كل الصعيد حتى عيذاب على البحر الأحمر •

واذا رجعنا بالأصول الأولى لانساب بنى هلال فانهم ينتسبون الى بنى عامر بن صعصعه بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان •

وكثيرا ما يتباهون بأن ميمونة احدى زوجات النبى الكريم كانت تنحدر من أصلابهم ويضفون بذلك على انفسهم شيئا من الاجلال والتكريم •

---

(١) جمال زكريا قاسم • استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا • مطبعة عين شمس • القاهرة • ١٩٦٧ • ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ •

وفي عام ١٠٩ هجريه وفدت بطون من «بنى هلال» على مصر بأعداد غير كبيرة ضمن هجرة قيس الكبرى وتلتها هجرات هلالية أخرى ولم تنزل هذه الهجرات بصعيد مصر فى تلك الآونه ولكنها نزلت فى أماكن أخرى من مصر الى أن قدمت أعداد كبيرة من هؤلاء الهلاليين فى عهد الفاطميين واستوطنوا الصعيد هذه المرة والسبب الأساسى فى استقدام الفاطميين لهذه الوفود الهلالية ، هو ظهور حركة القرامطة فى البحرين ، ومشايعة بنو هلال وبنو سليم وبنو ربيعة لتلك الحركة وحدث أن هاجم هؤلاء الأعراب جميعا بلاد العراق والكوفة والذى دفع القرامطة الى القيام بحركتهم هذه ، ظهور بعض الأفكار المنحرفة بينهم اذ كانوا يجدون فى تلك الأفكار الغريبه متنفسا ينفثون فيه سمومهم وتكونت مثل هذه الأفكار لديهم نتيجه انفصالهم عن التيار العام للمجتمع الاسلامى وأن البعض من ذوى الفكر الراديكالى المتطرف فى تاريخنا المعاصر يحلوا لهم وصف ثورة القرامطة هذه بأنها أول حركة اشتراكية يشهدها المجتمع الاسلامى نتيجة المتناقضات الاجتماعية الصارخة التى ماج بها آنذاك اذ أن الفتوحات الاسلامية ، وماجلبته من ثراء ورخاء وعاشه البعض دون الغير ، قد جعل الحقد يستشرى ، مما ولد روح الثوره الا انه من الثابت تايخيا أن انضمام بنى هلال وبنى سليم للقرامطة فى حركتهم المناوئة للخليفة العباسى لم يكن ايمانا من هؤلاء الطاعنين العرب البدو بهذه المبادىء الهدامه ، أو تأثرهم بها بقدر ما كان هذا اشباع لرغبة جامحة فى نفوسهم فى اظهار الشغب والتمرد ، وهى ضمن صفاتهم الغريزية التى جبلوا عليها حقبا طويلة من الزمن وقام هذا الحلف بين القرامطة وبين بنى هلال وبنى سليم فى فترة تزعزعت فيها القيم والافكار الى حد بعيد .

ومن المعروف أن بنى هلال كانوا يعيشون فى نجد ، وقد أصابها آنذاك قحط شديد ومجاعه مهلكه استمرت لفترة طويلة كادت تسوى بهم الأرض جميعا مما جعلهم يعيشون الفساد ويفكرون فى الهجرة الى أماكن اخرى لعلهم يجدون عوضا لما لحقهم من أذى بل وصل بهم الحال فى بعض المرات والأحيان انهم كانوا يتعرضون لقوافل الحجاج المتجهة الى بيت الله الحرام فى مكة

المكرمه أثناء موسم الحج لأداء فريضة الحج وكأن بنو هلال يعنون فيها السلب والنهب (٢) ٠

ليس معنى ذلك أن بنى هلال كانوا قطاع طرق ، فقد اشتغلوا فى طرق التجارة المتجهة الى اليمن أو الى الشام فى رحلتى الشتاء والصيف والتى وصفها القرآن الكريم « ايلاف قريش الافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ٠ صدق الله العظيم ٠

وعموما عمل الخلفاء العباسيون على مطاردة القرامطة وملاحقتهم وتشتيتهم فى أرجاء العالم الاسلامى فطردوا بنى سليم من البحرين وهم أنصار القرامطة حتى يمكن الانفراد بهم وهزيمتهم ٠

وهكذا لم تأخذ الشيعة شكلا محددا الا فى عصر العباسين ، ولما كان القرامطة فئة من الشيعة الاسماعيلية وممن يؤمنون فى امامة محمد بن اسماعيل جعفر الصادق الذى ينتهى نسبه الى الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ولذا فقد اتخذوا من الكوفة مركزا لنشر دعوتهم ، حيث أن الامام على اتخذها حاضرة لدولته ولذا فقد عمل الخلفاء العباسيون على رصد تحركات القرامطة الذين لجأوا الى تكوين الجمعيات السرية ، الا أن هذه الحيل لم تجعلهم بمنأى من طعن العباسيين لهم بالسيف من حين الى آخر ٠ ومن ثم عقد المعتضد الخليفه العباسى النية على القضاء على القرامطة بسواد الكوفه ومن يناصرهم من « بنى هلال » وغيرهم من جرذان العرب فأرسل اليهم الحمة تلو الحملة دون توقف ودون رحمة مما جعل القرامطة وكثيرا من بنى هلال يفرون الى بلاد الشام بعيدا عن خطر العباسيين ولكن الشام لم ينج هو الاخر من عبث العابثين من القرامطة الذين انطلقوا فى طول البلاد وعرضها (٣)

---

(٢) تقى الدين أحمد بن على المقريزى ٠ البيان والاعراب عما بارض مصر من الأعراب دار المعارف القاهرة ص ١٥ ــ ٦٥ ٠

(٣) عمر ابو النصر ٠ تغريبه بنى هلال ورحيلهم الى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة المكتبه الثقافية بالقاهرة ، ١٩٧٨ ص ٨ ٠

يعيثون فيها الفساد وينشرون بين أهلها الذعر وأصبح أهل البلاد غير مطمئنين على حالهم وكيانهم .

وعندما تم للفاطمين فتح مصر فقد كانت الخطوة التالية هو فتح بلاد الشام لتأمين جبهتهم،ولما كان القرامطة يسيطرون عليها ، فى عصر الاخشيديين بل الاكثر من ذلك فانهم قد فرضوا جزية مالية على حكامها وعندئذ كان لابد من اصطدام الفاطميين بالقرامطة وخاصة بعد رفض الفاطميين ارسال الجزية لهم ، ومن ثم تهيأ القرامطة يساعدهم ويعاونهم بنو هلال وبنو سليم فى مهاجمة بلاد الشام واستولوا عليها والأدهى من ذلك أن وصل بهم الأمر فى مواصلة زحفهم الى مصر حتى وصل بهم المقام الى منطقة عين شمس ، ظنا منهم أنه بهذا العمل يتم لهم القضاء على الفاطميين ، لكن المعز لدين الله الفاطيمى استطاع دحر هذه القوات وردها مرة أخرى الى بلاد الشام .

لم ينته الامر الى هذا الحد فقد وضع الفاطميون فى استراتيجيتهم ضرورة الا يضعوا أنفسهم تحت تهديد القرامطة مرة اخر ىخاصة بعد أن وصلوا الى عقر دارهم فى مصر وانصبت خطة الفاطميين منذ ذلك الوقت فصاعدا على استئصال شأفة القرامطة وتشتيت اعوانهم الهلاليه .

ولذلك فاننا نجد أنه لما تولى الخلافة العزيز بالله الفاطمى أرسل جيشا بقيادة جوهر الصقلى عام ٣٦٧هـ لمهاجمة القرامطة فى الشام وبالفعل تمكن هذا الجيش من انزال الهزيمة بالقرامطة والقضاء عليهم وتشتيت شملهم ، وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة والحاسمة فى تاريخ القرامطة الذين لم يقدر لهم أن يلعبوا دورا سياسيا هاما فى التاريخ الاسلامى بعد هذه الواقعة فقد عادوا أثرها الى ديارهم الأصلية فى البحرين وبذا تخلص المشرق العربى الاسلامى من شرهم .

وقام العزيز بالله بنقل بعض بطون العرب التابعين للقرامطة الى منطقة مصر العليا ، ومن هذه البطون قبائل « بنى هلال » « وبنى سليم » حيث

انزلوا فى العدوة الشرقية من صعيد مصر (٤) ٠

وكان لسياسة توطين تلك القبائل العربية على ضفاف وادى النيل اثر كبير فى استمرار تدفق الدم العربى فى شرايين مصر الاسلامية ــ اذ أن سكن هذه القبائل العربية تم هذة المرة فى شكل اعداد كبيرة بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل اذ تتابعت الهجرات العربيه الواحدة تلو الأخرى من شبه الجزيرة واستقرت نهائيا فى صعيد مصر حيث طاب لها المهجر الجديد لدرجة ان قيل أن اعدادا كبيره وغفيرة من هؤلاء العربان قد تركت بالمرة موطنها الأصلى فى جزيرة العرب ، حتى انه لم يبق لها من اثر ، واقامت نهائيا فى الصعيد ٠ كما اختلف شكال الهجرات العربية النازحة الى مصر على غير النسق الذى تم فى عهد عمرو بن العاص اذ ان الجيش العربى تحت قيادته وقد دون الا تكون معه زوجاته ولا أولاده ولا عشيرته مما دعى بعض المؤرخين الى التصريح بأنه كان من الممكن أن يكون هذا الجيش العربى مجرد موجه عربية يسهل اغراقها وذوبانها فى المجتمع الجديد الى أن جاءت تلك الهجرات العربية فى العصر الفاطمى وقد أختلف شكلها وطابعها حيث أن القادمين الجدد من العرب جاءوا وقد اصطحبوا معهم زوجاتهم ونساؤهم وأولادهم وعشيرتهم كما نقلوا معهم عاداتهم وتقاليدهم العربية وحافظوا على نقاء الدم العربى واستمراره ودوامه بالصورة التى ظل عليها حتى وقتنا الحالى ٠

كما يجدر الاشارة أن تلك الهجرات العربية قد جاءت الى صعيد مصر ونقلت معها خلافاتها ومنازعاتها ٠

ولقد امتلأت بجموع من **بنى هلال** بالجهات الشرقيه جتى بلغوا الصعيد الأعلى ولثبوا كذلك على هذا الحال زمنا ٠ وانضمت اليهم جماعات عربية أخرى وصار اسم « **بنى هلال** » علما على هذه الجماعات المتنوعة المتخالفة ،

(٤) عبد الرحمن ابن خلدون ٠ العبر وديوان المبتدأ والخبر ٠ الجزء السادس ص ٥٠ ، ٥٥ .

وجرى ذكرهم باستمرار بالرغم من أن أعداد بنى سليم كانوا أكثر من الهلاليين ولعل السبب فى هذه التسميه ترجع الى ما كان لزيد بن هلال فى ذلك الجين من نصيب بارز فى زعامه هذه الجماعات العربية أو ربما كان لسهولة الاسم وسرعة دورانه على الألسنة دخل فى ذلك ٠

بالاضافه الى ذلك انضمام كثير من الأحياء فى صعيد مصر الى قبائل بنى هلال كجشم والأثيج وزغبة ورياح (٥) مما جعل لبنى هلال لواء الزعامة على صعيد مصر بأكمله وهنا يطيب لنا أن نذكر أن بعض القرامطة الذين استقروا فى احدى قرى سوهاج والمسماه باسمهم حتى وقتنا الحالى قد انصهرن هى الأخرى تحت لواء بنى هلال بالرغم أن كان للقرامطة لواء الزعامة على بنى هلال فى هجراتهم السابقة سواء بالكوفة أو فى بلاد الشام كما سبق الاشارة ٠

أما فى مصر فقد انعكس الوضع حيث كان القرامطة لا يمثلون خطورة فى ظل الحكم الفاطمى لمصر ٠

وهكذا قدر لبنى هلال أن يلعبوا دورا رئيسيا وبارزا فى نشر العروبة والاسلام فى أكثر من منطقة بالقارة الافريقية ، وأصبح لهم قدم راسخة وباع طويل فى هذا المضمار (٦) ٠

فالبنسبة لتاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط على سبيل المثال ، لا يكاد يخلوا مؤلف عربى أو أجنبى وهو يتناول بالتاريخ لهذه البلدان من عالمنا الافريقى الا ويشير الى دور بنى هلال ، وان تضاربت وجهات النظر المختلفه والآراء المتاينة حول مدى ايجابية أو سلبية هذا الدور ٠

---

(٥) احمد مختار العبادى ٠ فى تاريخ المغـرب والاندلس مؤسسـة ٠ الثقـافة الجامعية القاهرة ص ٧ ـ ٨ ٠

(٦) Spencer, Trimingham, A Islam in west Africa., oxford London. pp 50-70

ومن بعض المؤرخين من يطيب له أن يشبه ما أحدثه بنو هلال فى خضم مسيرتهم الكبرى من مصر وهم يولون وجههم شطر شمال غرب افريقيا بما أحدثه المغول والتتار من دمار وتخريب لبلدان المشرق العربى والاسلامى ويعنى هؤلاء المؤرخون فى المقارنة بين رحلة بنى هلال اثناء مرورهم ببرقة وطرابلس الغرب وتونس برحلة المغول فى بغداد ودمشق وبلاد الشام ويصف البعض الآخر من المؤرخين ور بنى هلال فى بلاد المغرب العربى أنه كان دورا انحطاطيا للثقافة العربية ولا شك أن وجهة النظر تلك متأثرة الى حد كبير بوجهة النظر الأولى .

وان كنا لا نريد أن نسبق الأحداث ونقطع برأى حاسم وجازم أن لبنى هلال دورا أساسيا يعد معلما بارزا فى نشر اللغة العربية بين قبائل البربر على الأقل بصورة أكثر مما كانت عليه قبل رحيلهم انى هذه البلدان اذ اصبحت الملامح العربيه لهذه البلدان أكثر اشراقا ونضارة ووضوحا . ولقد تفجرت ينابيع العروبة بهذه الاقطار .

ومن هنا يجب اعادة النظر فى كتابة تاريخ بنى هلال والاثار المترتبه على مسيرتهم الكبرى فى بلدان شمال غرب افريقيا اذ لم تكن مجرد غزوه همجيه بربريه كما يروق للبعض ان ينعتها بذلك الوصف باستمرار ومع لا لاجدال فيه انهم قد احدثوا شيئا من التخريب والتدمير اثناء سيرهم ببرقه وطرابلس الغرب وتونس لانهم لم يكونوا من بداوتهم وجلفهم حيث ان مده اقامتهم بصعيد مصر حتى حين رحيلهم لم تكن قد غيرت من تقاليد صحراء نجد بقسوتها وخشونتها ورعونتها فضلا عن كونهم أرادوا أن يظهروا لاهالى البلدان التى يمرون عليها ان بأسهم شديد ، وأنهم قوم اشداء ، وأنهم ذو فروسية ، وهذا ما جعلهم يغالون فى احداث الرعب والخوف لدى الأهالى حتى يسهل السيطرة عليهم وهزيمتهم ببساطة شديدة . ومن هذه الزاوية نلمس عذرا لدى بعض المؤرخين فى تشبيه بنى هلال بالمغول (٧) .

---

(٧) حسن أحمد محمود . الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا . مكتبة النهضه المصرية بالقاهرة . ص ١٥٠ ـ ١٦٠ .

الفصل الثالث

الخلاف بين الفاطميين والافريقيين (*)

الخلاف بين الفاطميين والافريقيين ، هو بأسلوب آخر خلاف بين الشيعة والمالكيه فى شمال غرب افريقيا ، وأهمية هذا الفصل هو أنه خلفية تاريخ للأسباب الجوهـــرية التى مهدت للفاطميين فى القــاهرة الى ارســال حملة بنى هلال لتأديب أهل المغرب العربى ، هذا من ناحية •

ومن ناحية أخرى ، أنه عندما وجد بنو هلال بين البربر ، أن اتجه هؤلاء الآخرون الى الجنوب أى فى غرب افريقيا ، حاملين معهم مذهبهم ، وهو المذهب المالكى الى أهالى تلك الجهات مما أدى الى انتشار هذا المذهب بين أهالى غرب افريقيا ، وهو نتيجه من نتائج الغزوة الهلالية فى بلاد المغرب العربى كما أن البربر حاولوا من وراء صراعهم مع الفاطميين ، أن يتخلصوا من حكم الأرستقراطية العربية الحاكمة المتمثل فى شخص الفاطميين تحدوهم النزعة الى حكم بربرى خالص •

ولذا فانه يرجع الى « الهلالية » عملية استعراب البربر بشكل لم يحدث له مثيل من قبل • كل هذا يدعونا الى معرفة التيارات الفكرية والمذاهب الدينية السائدة فى هذه البلدان وكيف تصارعت تلك المذاهب مما حدى بالحكام الفاطميين فى مصر الى ارسال جموع عديدة من الهلالية الساكنين فى الصعيد •

(*) د • محمد المهدى صديق

لقد كانت التربة خصبة فى بلاد المغرب لا متشاق الحسام فى وجه الفاطميين لمجرد أول بادرة تسمح للأهالى وذلك لتمكن المذهب المالكى من نفوسهم لدرجة لا يعلوها شىء آخر .

ولذا فليس بمستغرب أن نذهب الى الرأى الذى يصرح بأن أهم تطور ثقافى شهدته افريقية فى العصور الوسطى هو انتشار مذهب مالك من مدرسة القيروان الى بقية بلدان المغرب العربى كله ، وبلاد الأندلس وغرب افريقيا ولايزال هذا المذهب حتى وقتنا الحالى هو المذهب السائد فى كثير من الأقطار الافريقية الاسلامية ، والعامل الموجه لثقافتها وحضارتها وحياتها الاجتماعية .

وكان على رأس الأسباب الجوهرية لاقبال الافريقيين على المذهب المالكى هو التمسك بسنة الرسول فى أضيق الحدود كما أنهم أحبوا فى مالك اتخاذه من دار الهجرة ومقام الرسول مقرا لتعاليمه وفقهه فبدأوا يقبلون على المذهب ونمخض عن ذلك أن عظم سلطان الفقهاء فى اوساط المغاربة المالكيين فى الحياة الثقافية والدينية ، وأصبح من تقاليد المالكية الابتعاد عن مصاحبه الأمراء وعدم تولى القضاء والابتعاد عن مناصب الافتاء وكانت مقاطعه فقهاء المالكية للأمراء وعدم السير فى ركابهم وأخذهم بالبأس والشدة أمرا محببا الى نفوس المغاربة الذين جلبوا على النزعه الاستقلالية وميلهم الى الخروج عن كل سلطان اجنبى يفرض عليهم .

ومن هذا المنطلق وجد المغاربة فى فقهاء المالكية زعماء يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ويستعذبون الاستشهاد فى سبيل العقيدة وهكذا بدأت تختفى السياسة . من نفوس البربر ، وحلت محلها زعامة أخرى دينية شعبية ينصاع لها الناس فى عقيدة وايمان وأمعن المغاربة فى تعصبهم لمذهبهم المحبب اليهم فمن كان مالكيا قبلوه وأحبوه ومالوا اليه . ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمه وغلبت على المغاربة النزعة المالكية الدينيه بوجه خاص فجعلهم لا يرغبون من الدراسات الاسلامية الا هذه الناحية يقبلون عليها ويتعصبون لهـا .

ولذا يعتبر بعض المؤرخين خروج الفاطميين من أفريقيا هربا أمام عمق جذور المذهب المالكى فى النزعه الأفريقية وذلك لأن كثيرا من الناس رغم ارغامهم على الولاء للشيعة ، الا أن نظرتهم الى المكاسب الكثيرة التى حصل عليها الحكم الشيعى انما هى مجرد مكاسب وقتية لا تلبث أن تزول •

وبناء عليه ، كان المغاربة يتمسكون أشد التمسك بالاسلام السنى ويتعاطفون مع مذهب الامام مالك بصفة خاصة ويعتبرونه « النظرية الكاملة » التى يجب أن يأخذ بها المسلم ، مما يمكن الذهاب معه الى حد القول بما يجوز تسمية « بالقومية المالكية » هناك (١) • مما حدى الفاطميين الى التفكير الجدى فى التوجه الى مصر لعلهم يجدون فيها متنفسا لنشر دعوتهم ، وفى الوقت نفسه كان الفاطميون يدركون تمام الادراك بأن المالكيين سيحاولون العودة الى سابق نفوذهم ولذا صمموا أثناء عملية تحركهم فى تنصيب والى يحكم باسمهم وكان هذا الوالى هو زيزى بن مناد » الذى وقف بعناد وبصلابة أمام محاولة « أبى يزيد مخلد بن كيداد » التى كان يرمى وراءها الى زلزلة الحكم الفاطمى •

ولكن « زيزى بن مناد » استطاع الى جانب احباط هذه المحاولة أن يؤمن من الدولة من الزناتيين وحلفائهم الذين كانوا منصرفين تماما عن الولاء للحكم الشيعى الى الحكم الاموى القائم فى الأندلس •

كما أنه استطاع أن يحمى الخطوط الخلفية لتقدم « جوهر الصقلى » بغزوته التدميريه التى قام بها باسم السيعه فى المغرب الأقص ثم انه أخيرا سائد الدولة وهى تتحرك ببطء نحو مصر من كافة اعدائها (٢) •

ومع أن « زيزى بن مناد » لم يشهد عملية التحرك الأخيرة لموته ،

---

(١) عبده بدوى ، مع حركة الاسلام فى أفريقيا • الهيئه المصرية العامة للتأليف والنشر • القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٥ •
(٢) ابن خلدون المصدر السابق ص ٥٥ ــ ٦٠

الا ان ابنه « بلكين » قد شهد هذه العملية ، فاستدعاه « المعز وسيفه لايزال مخضبا بدماء زناتة الذين كانوا يعملون ضد الشيعة ، وقد ابتسم بلكين وهو يرى المعز يبش فى وجهه ويذكر له أنه لا خلاصة واخلاص أبيه وأسرته للحكم الشيعى يعلن رضاءه عنه ٠

ويذكر أنه سيسميه « يوسف » وسيجعل كنيته « أبا الفتوح ولقبه » سند الدوله ثم بعد هذا ذكر له أنه يوصية بثلاث : ــ

أولاها : ألا يرفع السيف عن البربر

الثانية : الا يرفع الجباية عن أهل الباديه ٠

والثالثة : ألا يولى أحدا من أهل بيته ٠

وبارتحال المعز الفاطمى عام ٣٦٢ هـ أحس المغاربة بالفرح العظيم ، لأنه آن الأوان لاعلان أفكارهم ولفتح باب المناقشات من جديد فى قضايا الشيعه وقضايا الاسلام السنى ٠

وعندئذ تبين للفاطمين أن الشعب المغربى متكتلا خلف فقهائه المالكيين يهتدون بهديهم ويأتمرون بأمرهم وأنه لكى تتجمع الدولة للفاطميين لابد لها من التغلب على هذه الوطنية المغربية الدينية المناوئه لها ٠

ولذا تسلح الفاطميون من اجل نشر شيعتهم بأسلوب الدعاية والمناظرة ٠ ومن أجل ذلك عقدوا المجالس وجلبوا أعزة المالكية وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم الا أن هذا الأسلوب لم يجدى وجرب الفاطميون أسلوبا آخر فلجأوا الى اغداق المال والجاه على أئمة المالكية ، الا ان مآله كان الفشل ، وأرتفع صوت علماء القيروان الذين يمثلون مذهب الامام مالك وانقلب الفاطميون الى طغاه مستبدين يستعينون بالعنف والشدة فضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا السنة البعض وضربوا الرقاب وصلبوا الفقهاء أحياء وصادروا الأموال ، وتفننوا فى وسائل التعذيب ٠

ويذكر المؤرخون أنهم كانوا يبطحون الناس على ظهورهم ثم يأمرون السود أن يدوسهم بالأقدام • ولم تجد وسائل التعذيب هذه ووقف المالكية فى وجه الفاطميين وقفة رجل واحد واعتبروهم زنادقة ونادوا بقتلهم اينما وجدوا وأعلنوا عليهم المقاطعه السلبية •

وتنحصر معالم تلك السياسة فى عدة نقاط أبرزها : ـ

(أ) عـدم الصلاة فى مساجدهم

(ب) عـدم دفع الأموال لهم •

(ب) عـدم التعارف معهم •

ووصل حد المقاطعة لدرجة أنه حين ألف أحد الفقهاء كتابا فى نسب الفاطميين حاربة الناس ، حتى فر من القيروان بنفسه (٣) •

وانتشرت المقاومة فى المغرب كله بفضل فقهاء المالكيه اذ عمت الثورات ضد الفاطميين ويرجع اخفاقهم فى فتح المغرب الأقصى ، اقرار السكينه ، كان بسبب عداء المالكية لهم مما جعلهم يحاولون فتح ميدان جديد بالاتجاه صوب مصر • اذ تضافرت ضدهم جميع القوى المتحكمه فى مصير المغرب ، الامويون فى الأندلس الادارسة والزناتيون فى المغرب الاقصى يظاهرهم المالكية فى كل مكان •

وعلى وجه العموم كان رحيل الفاطميين الى مصر انتصارا للمالكية ولسياسة المقاطعة السلبية (٤) •

---

(٣) عبده بدوى المصدر السابق • ص ٤٠ ـ ٤٢

(٤) رولاند اوليفر • ، وجون فيج • موجز تاريخ افريقية ، ترجمة د • دولت احمد صادق • الدار المصرية للتاليف الترجمة القاهرة ، ص ٩٩ ـ ١٠١ ـ وأيضا ـ المقريزى • المصدر السابق ص ٤٠ ـ ٥٠

الفصل الرابع

انتكاسة الفاطميين واختيارهم لبنى هلال (*)

اكتمل انتصار المالكية فى أفريقية سنة ٤٤٣ هـ ، حين أعلن أمراء أفريقية المناصفين للفاطميين اسميا ، العصيان على هذه الدولة • وقاطعوا الخطبة لهم فى البلاد •

اذ وجد الحكام الشيعيون انفسهم فى مازق وحرج شديد بمجرد نزوح الفاطميين الى مصر ، اذ كان على هؤلاء الحكام أن يجتازوا امتحانا عسيرا ، وهو اما أن يكونوا شيعيين فيقفوا بذلك جند التيار الشعبى الأصيل ، ونبعه الصافى ، واما أن يكونوا سنيين ، فيحظوا برضى الشعب المغربى ، وهذا الطريق الثانى هو الذى رجحت كفته أخيرا لدى الحكام الشيعه الأفارقة. الذين لم يعد يرضيهم أن يكونوا مجرد دمية والعوبة فى أيدى الفاطميين ، يولونهم ويعزلونهم وفقا للهوى والمزاج الفاطمى ، بالاضافة الى أن الدعوة الشيعيه ذاتها ، كانت مجرد طفوا على السطح دون أن تكون عميقة الجذور •

ومن كل مكان رفع الناس وجوههم الى الحكام الزيزيين الذين تجاوبت مشاعرهم لهذه الجموع ، فانفعلوا بهم ، واحسوا أنهم لا يستطيعون أن يحكوا تلك الجموع العريضة باسم التفكير الشيعى ، وأنه من الخير لهم أن يتجاوبوا مع الأفكار السائدة والتى تشغل الناس ، الا أنهم كانوا يخشون

(*) د • محمد المهدى صديق •

على أنفسهم من الفاطميين فى مصر ، لا لكاسبهم السريعة التى حصلوا عليها فقط ، ولكن لأنهم كانوا يولون الحكام فى افريقيه • وكانوا يستطيعون اسقاط من يتمرد عليهم •

غير أن هؤلاء الحكام سرعان ما وازنوا بين شعوبهم ، وبين هـذه الطبقة الحاكمة التى تعيش بعيدا عنهم : وسرعان ما قرروا الانضمام الى أحد الجانبين • ولم يطل بهم التفكير ، لأنهم كانوا من الحكمة والفهم بحيث لا يستطيعون أن يتركوا الشعب وهو يغلى من حولهم الى هذه الارستقراطية العربية التى تعيش بعيدا عنهم • ثم انهم ما كادوا يظهرون الميل فى أول الأمر للاسلام السنى حتى تلقى الناس هذا الميل بالفرح العظيم ، ولكن هذا الفرح جاوز حده ، حين جعلوا من هذا الميل فرصة سانحة للتنكيل ـ الى أقصى حد ـ بالشيعة !

وقد حدث هذا بالفعل • ذلك لأنهم سرعان ما أقاموا المذابح ، وسرعان ما اقتحموا مدينة « المهدية » التى كانت تعتبر قلعة الشيعه ، وألقوا عليها النار ، ونهبوا ما فيها من أموال ، وانتهكوا بعنف منازل الشيعة حتى المساجد التى كانوا يصلون فيها •

وقد وصل الحال الى حد أن مائتين من الشيعه خرجوا هم وأولادهم يميدون صقليه ، فاذا ببعض الناس يشبون عليهم ، ويعتدون على نسائهم • وهكذا كان هذا الأمر فتنة ، ابتلى بها العالم الاسلامى •

ومع أن هذا الأمر ، قد بدأ على استحياء فى البدايه ، الا أنه أخذ شكلا علنيا على يد « المعز بن باديس » (١٠١٥ ـ ١٠٦٢) ذلك لأن الوزير « أبا الحسن بن أبى الزجال » قد أخذ على عاتقه تربيته منذ الصغره وكان أحد الذين يتعاطفون مع المالكية ، ويميلون عن الشيعه •

وقد نشأ المعز على شاكلته •• وفى أحد الأعياد تهيأ للخروج الى المصلى، وبينما هو يسير فى حرسه ، عثر به جواده فهتف « أبو بكر وعمر » •

وما كاد يسمح الشيعة هذا ، حتى كبر عليهم هذا الأمر ، فتحا وطوه يريدون قتله •

ولكن عبيده ، ومن كان يكتم مذهب أهل السنة ، ظهروا فجأة ودخلوا فى معركة كبيرة ، ترتب عليها اغماد السيوف فى دماء ما ينيف على ثلاثة آلاف شيعى فى المكان الذى لايزال يسمى حتى الآن « بركة الدم » •

ثم أن « المعز بن باديس » قد وجد الفرصة التى يتجاوب فيها مع مشاعر شعبه ، وخاصة بعد أن تغلب على عميه اللذين كانا خارجين عليه ، وعلى قبيلة زناتة التى كانت تناوى حكمه •

ومن هنا وجد أنه لابد أن تتحقق على يديه عمليه الحسم بين قضية الشيعه ، وقضية أهل السنة ، فهذه القضية لن يحلها « الزمن » وانما يحلها « موقف حاسم » من القضيتين •

وفى ضوء هذا نراه يبادر فى عام ٤٤٠ هـ الى قطع الخطبة عن الشيعة واعلانها على كافة المنابر باسم الخليفة العباسى « القائم بن عبد القادر » فاذا بالمساجد تعود الى امتلائها بالمصليين •

ذلك لأن الناس كانوا يحضرون للصلاة يوم الجمعة ، ثم ينصرفون قبل الخطبة وهم يرددون « اللهم اشهد !! اللهم اشهد !! » •

وعلى كل حال ، أسرع « المعز بن باديس » بازالة أسماء الشيعه من الرايات والبنود ، وبصهر العملة التى تحمل أسماءهم ، وامعاقبة من يتعامل بها ، ثم جعل الشعار اللونى المميز للدولة « السواد » كما أمر بلعن الشيعة على منبره الرسمى ، فاذا بالخطيب يقول عنهم « •• اللهم والعن الفسقة الكبار ، المارقين الفجار ، أعداء الدين وأنصار الشيطان ، المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك ، المتبعين غير سبيلك ، والمبدلين لكتابك ، اللهم والعنهم لعنا وبيلا ، وأخزهم خزيا عريضا طويلا » وقد غضب لهذا الفاطميون أشد

الغضب ، مما جعل « المستنصر بالله الفاطمى » يقضى مع وجهاء دولته عدة أيام متواليه لتدبير الكيد لهذه الدولة البعيده عنه ، والتى يعتبر ارسال جيش منظم لها مغامرة (١) • فعزم وزير الفاطميين فى ذلك الوقت أبو محمد الحسن بن على اليازورى على تسيير جموع الهلاليه وحلفائهم من بنى حسان وبنى سليم الى المعز لقتاله •

وكانت هذه الجموع تملأ فضاء الجانب الشرقى من مصر عشرات من السنين ، وكانوا حينئذ ، كما وصفهم المقريزى لأهل بلاد الصعيد الى عيذاب وكانوا دائمى الشغب ومثيرى القلاقل فى هذا المنطقة ، فأذن لهم اليازورى فى عام ٤٤٢ هـ بالعبور الى الجانب الشرقى من النيل والانتقال الى بلاد المغرب لملاقاة المعز بن باديس (٢) •

وهكذا تدارس الفاطميون الموقف من كافة الوجوه ، فوجدوا أنه لم يكن بالأمر الهين أو بالأمر اليسير ، ارسال جيش منظم ، من مصر الى بلاد المغرب العربى ، لتأديب المنشقين عليهم ، نظرا لصعوبة المواصلات المتمثلة فى وعورة الطريق • ثانيا : اختيار الفاطميين **«لبنى هلال»** من أجل مهاجمة الانفصاليين ، كان أنسب شئ لطبيعة تلك المهة ، لأن هذه الجماعات عبارة عن شرذمه ، تكون فى مجموعها جيشا غير نظامى بكل ما فى الكلمة من معنى وذلك لقدرة الهلاليين على احداث الشغب والهلع فى نفوس الأهلين الموجودين فى اطريق أثناء مسيرة بنى هلال •

ومجمل القول أنهم يستطيعون احداث ما لا يستطيعه الجيش النظامى ثالثا : أن هؤلاء العرب من الهلاليين لهم خبره قتاليه نظرا لاشتراكهم مع القرامطة فى معارك كثيرة ضد العباسيين فى بلاد الكوفه والعراق ، وضد الطولونيين والاخشديين والفاطميين فى بلاد الشام •

---

(١) عبده بدوى المصدر السابق • ص ٤١ ــ ٦٠

(٢) العزيزى القريزى :• المصدر السابق • ص ٥٠ ــ ٦٠

رابعا : يتمتع بنو هلال بفروسية نادرة ، قلما تتمتع بها أى قبيلة أخرى ، كما أن لهم وعى كامل بدروب الصحراء ، وقدرة غير عادية على تحمل أجوائها القاسية ، حيث أنهم قدموا أصلا من صحراء نجد وهى ذات طبيعة أشد قسوة٠
خامسا : أن اسناد مهمة حربية ، يوكل أعباؤها بالكامل هذه المرة لبنى هلال، مما يجعل لهم شخصية مستقلة ، بعد أن كانوا ، عبارة عن جند مرتزقة ، فان هذا سيرضى فضولا فى أنفسهم ، ويشبع فهم غرورهم ، كما يرضى فى نفس الوقت تعطشهم للدماء وظمأهم للسلب والنهب ٠

سادسا : التخلص من عبث بنى هلال وافسادهم فى مصر ، خاصة وأن لهم أكثر من سابقة فى شعه عصا الطاعه فى وجه حكامها ، اذ ظهر فيهم عبد الله بن حليس الذى قاد ثورات أهل الحوف طوال عام ٢١٤ هـ ٠

كما أنهم مثلوا ضررا على منطقة الصعيد وأهله فى عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمى مما جعله يضع فى حسباته ، أنه اذا كتب النصر لبنى هلال على المعز بن باديس ، فانه يتخذ الهلاليين أعوانا وعمالا للفاطميين فى المغرب ، أما اذا هزموا ، ضعف أمرهم ، وتخلصت الخلافة من عدوانهم وعلى العموم ، فالأمر عرب الباديه من بنى هلال وبنى سليم ، أخف وطأة وأهون من صولجان الملوك ٠

والخلاصة : أن يتحقق للمستنصر هدفان فى أن وأحد ٠

(أ) التخلص من عبث بنى هلال وافسادهم فى مصر ٠

(ب) التخلص من أمراء افريقيا الخارجين عليهم ٠ (١) ٠

---

(١) عبده بدوى : المصدر السابق : ص ١٩٥ ٠

الفصل الخامس

بنو هلال والمغرب العربى (*)

ذكرنا كيف فكر المستنصر بالله الفاطمى فى القضاء على مالك ابن باديس بالمغرب ولم تكن لديه القوات الكافية لارسالها لمحاربة المعز واقتنع بوجهة نظر وزيره اليازورى ، والتى تقضى بتسيير بطون من بنى هلال لتاديب المعز ومن أجل تنفيذ هذه المهمة استقدم المستنصر بالله رؤساء من بنى هلال ، وأمر أمير أمراءه مكين الدولة بأن يخلع عليهم من الخلع السنية وأن ينعم عليهم من النعم الكثيرة كما أمر أيضا أن تصلح ما بين بطون زغبة ورياح ويزيل ما بينهما من أسباب الخلاف والشقاق ويدفع ما عليها من ديات كما أمر باعطاء كل فرد من أبناء القبيلة بعيرا ودينارا .

ومن الجدير بالذكر اننا خصصنا بالذكر بطون زغبة ورياح حيث أنهما وحدهما اللذين عهد اليهما بالاشتراك فى محاربة المعز بن باديس فى مطلع الأمر. فى حين ظلت بطون غيرهما من بنى هلال مثل جشم والأثبج لم تغادر منطقة الصعيد علما بأن تلك البطون ستلحق من سبقها من البطون المهاجرة لكى تشارك هى الأخرى فى القتال الدائر برحى بلاد المغرب العربى . وبعبارة أخرى أن زغبة ورياح قد هيأتا لبطون أخرى من بطون بنى هلال فرصة الهجرة والاقامة فى المغرب العربى وسيكون لهذه الهجرات المتوالية والمتدافعة اثر كبير فى تاريخ المغرب العربى الكبير .

(*) د . محمد المهدى صديق .

وعلى وجه العموم صرخ المستنصر فى أذن بنى هلال بعبور نهر النيل قائلا : «قد أذنت لكم فى جواز النيل وأوليتكم ما يملك ابن باديس العبد الأبق» وبالفعل استجاب بنو هلال لنداء الخليفه الفاطمى وجاوزوا النيل الذى كان محرما عليهم من قبل الدوله من قبل ثم ساروا حتى وصلوا برقة وافتتحوها ووجدوا فيها بلادا كثيرة المرعى ومع ذلك خالية من السكان لأن المعز كان قد أباد سكانها من أهل زناته مما اغرى بنو هلال بالكتابه الى اخوانهم من بطون جشم والاثيج ممن آثروا البقاء فى شرق النيل ، يرغبونهم ويحثونهم بالسفر اليهم .

وفى بادىء الأمر عندما ما علم المعز بمقدم هؤلاء العرب استخف شأنهم واستصغر أمرهم ولم يعبأ بهم الا أنه أدرك حقيقة الأمر فعاد الى رشده وقرب اليه امير رياح من بنى هلال وهو مؤنس بن يحيى الرياحي فزوجه احدى بناته لأن المعز كان قد سئم صنهاجه فأراد ان يستبد لهم بعنصر آخر . فشاور المعز زوج ابنته فى أن يتخذ من بنى رياح جندا له لكن مؤنس بن يحيى نصحه بالعدول عن فكرته هذه معللا ذلك بأن ابناء قبيلته لا يتفقون على رأى ولا تجمعهم كلمه ، وصدق فيهم قول الله سبحانه وتعالى « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » اذ كان مؤنس عليما ببواطن أمور قبيلته مما جعله يسدى النصيحة خالصة للمعز الا أن المعز كان يساوره الشك فى صدق نيات زوج ابنته ، ظهر ذلك واضحا فيما اصر عليه من رأيه ومداومته عليه بالحاح الى أن قال له انما تريد انفرادك حسدا منك لقومك ولكى يبرىء مونس نفسه فما كان منه فى النهاية الا أن أمضاع لأوامر المعز ودعى أبناء قبيلته من بنى هلال وأخذ يعدد لهم مكارم اخلاق المعز ومناقبه الطيبة . وتقدم فى ركب كبير منهم ولما وصلوا القيروان : أمعنوا فيها السلب والنهب (١) .

ولما جاءت المعز أخبارهم عظم الأمر عليه ونسب كل ما جيث الى مؤنس وقال : انما فعل هذا ليؤكد له ذكره من قبل عن رعونة بنى هلال .

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق . ص ٧٠ – ٨٠.

ثم عقد المعز النية فى أن يسيم زوج ابنته الوانا من العذاب وعرف الأخير ما اخذ يبيته له الأول فما كان من مؤنس الى أن احث قومه من بنى هلال بمهاجمه القيروان خاصة وأنه كان على علم بمعالم المدينة ومنافذها فعاثوا فى الأرض الفساد ٠

وبدا المعز فى جمع جيوشة وأرسل فى طلب المدد من بنى عمه بقلعة حماد فأرسلوا اليه ألف فارس كذلك ارسلت له زناته الف فارس آخر ٠

وفى الوقت نفسه اخذ يتودد الى بنى هلال فارسل اليهم بعض الفقهاء يحثونهم على الطاعة الا أنهم لم يستجيبوا ٠ فخرج المعز بقواته لملاقاة بنى هلال ووافق ذلك ثانى أيام عيد الأضحى عام ٤٤٣ هـ وبلغ عدد قواته ثلاثون الف مقاتل وما ان وصلت المكان الذى يعرف الآن بقرية بنى هلال حتى هاجمها الهلاليون وهلكت قوات المعز عن آخرها حيث طعنهم العرب فى اعينهم لذا سمى هذا اليوم بيوم الأعين ٠

ويجدر الاشارة هنا أنه من بين الأسباب الرئيسية التى أدت الى خذلان المعز فى تلك المعركة هو فرار زناتة وعدد كبير من أفراد قبيلة صهاجة ٠

ورجحت كفة الهلاليين فى المعركة رجحانا كبيرا ، ودخلوا المعز ونهبوا كل ما به من ذهب وفضة وأمتعة وأثاث ، وساروا بعدئذ الى القيروان والتى لم يمكن نصيبها بأقل مما حدث لمعسكر المعز اذ تعرضت لأعمال السلب والنهب واستبد بأهلها الخوف والجزع وهرب معظمهم الى البلدان المجاورة حاملين معهم أبناء الخزى والعار بمالحقهم من بنى هلال مما جعلهم سيره تلك القبيلة تجرى على كل سان من أبناء المغرب العربى لدرجة أنه حينما كان ينزل بنو هلال مكانا او معركه كانت تسبقهم انيه شهرتهم فى أعمال البطولة الخارقة والفروسية النادرة (٢) مما مهد لهم بالطبع لانتصارات ساحقه

---

(٢) Trimingham., op. cit., pp 40-50

لايضارعهم فى ذلك سوى جحافل التتر الذين لم يسلم من أذاهم وشرهم بلدان المشرق العربى والاسلامى فى العصر الوسيط ٠

ومن هنا كانت شهرة « **رواية ابى زيد الهلالى** » وما نسج حولها من خيال برع فيه ناسجوه فى أعمال البطولات العدة التى كانت تلوكها الالسنه وتتداولها من حين لآخر مستلهمة منها امكانيات النصر مما جعل لها البقاء والخلود ما يناهز الألف عام وأصبحت تراثا شعبيا اصيلا ونبعا صافيا تنهل منه الأجيال وكأنه جزء من كيانها القومى ٠ يتغنى بأمجادها أكثر من قطر عربى فى افريقيا وآسيا ولا يمل من سماعها أى مستمع مهما تفاوتت درجات ثقافته يعيش على نغم وذكرى وطرب الانتصارات والانجازات التى حققها له اسلافه منذ عشر قرون ٠

تجسدت بطولات بنى هلال للمرة الثانية لما أحرزوه على قوات المعز بن باديس من انتصارات بالغة حينما تجدد قتالهم معه ونازلوه فى اليوم السابع من أيام العيد بعد أن انضم اليه بعض سكان القيروان الفارين وذهب بقيتهم الى المنصورية وعندما تحرك المعز اليها حاصر بنو هلال المدينة وهزموا المعز شر هزيمه ٠

مما جعل دولة «**بنى زيرى**» فى النهاية تنحصر فى شريط ضيق من الساحل يحيط بمدينة المهدية اذ مهد هذا النصر الكبير لبنى هلال سرعة الاستيلاء على كثير من المدن فاستولوا فى عام ٤٤٦ هـ على باجه وقابس ، وقسطنطينه وتونس ٠ وبونه ٠

وأيام تلك الانتصارات الباهرة سعى باديس فى زواج بناته الثلاث من أمراء بطون بنى هلال حتى يأمن على نفسه وعلى ما بقى فى يديه من مدينه المهديه فيعصمها من جحافلهم وبالفعل طلب المعز فى عام ٤٤٨ هـ الصلح من مؤنس وسارا معا الى المهدية ٠

ولم يفت باديس فى الوقت ذاته ، أن يسترضى الخليفه الفاطمى فارسل اليه الهدايا القيمة والثمينة طالبا منه اصفح والغفران لكن العلاقات بطبيعة الحال لم ترجع الى سابق عهدها ، انه لما توفى المعز عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م فلم يتعد ملك ابنه تميم المهديه والساحل المحيط بها ٠

ولم تنته خروب قبائل بنى هلال عند هذا الحد فقد تطلعت أنظارهم الى قبيله زناته فساروا اليها وهزموها ٠ كما نشبت الحرب بين بنى هلال وقبيلة هواره عام ٤٥٣ هـ ومنيت هى الأخرى بالهزيمه مثل زناته ٠

ولما استقر الأمر لبنى هلال بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، صالحهم الصنهاجيون على أن ينفردوا بملك الضواحى دونهم الا أن الصنهاجين عملوا من جانبهم على بث الفرقة بين بطون بنى هلال فحاولوا ظهار الأثيج على رياح وزغبة ٠ الا أن هذه المحاولات كانت غير ذات جدوى حيث فضت بطون بنى هلال على ملك صنهاجة قضاء يكاد يكون تاما بعد نشوب عديد من المعارك كتب فيها النصر لبني هلال ٠

---

(٣) ابن خلدون ٠ المصدر السابق ٠ ص ٨٠ ـ ٩٠

الفصل السادس

« اثر الغزوة الهلالية على المغرب العربى » (*)

فى الفتح الاسلامى الأول للمغرب العربى ، تسلل الجيش العربى فى انحائه ، فاستولى على كل معسكراته ومدنه ، لقد عانى العرب كثيرا فى نضالهم وحروبهم مع البربر .

فكما اخبرنا ابن أبى يزيد ، بأن البربر قد ارتدوا عن دينهم اثنتا عشرة مرة ، قبل أن يحكم الاسلام قبضته عليهم .

ولم يوطن العرب انفسهم فى تلك المناطق كساكنى خيام أو بدورحل اذ أن الظروف لم تسمح لهم أختلال الريف الفسيح ، ولكنهم حصروا أنفسهم على المدن والمعسكرات ، ولهذا السبب ذكرنا بأن العرب لم يستوطنوا المغرب .

ثم حدث أن هاجر العرب فى أواسط القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) لكى يستوطنوها ، وينتشروا فيها قبائل ربطون وعشائر .

ومنذ ذلك الوقت . حدث تغيير شامل وكامل شمل كل الحياة فى شمال افريقيا والصحراء الكبرى الغربية ، حينما انساب عليها قبائل بنو هلال وبنو سليم .

وفى ذلك الوقت أيضا ، حينما بدأت تلك الهجرة ، أن حدث شىء من

د . محمد المهدى صديق

الاستقرار في الطرف المقابل من الشيعة • في ظل أسرتي المرابطين (١٠٥٦-١١٤٧) والموحدين (١١٣٠ - ١٢٦٩) الذين أكدوا وجودهم السنى • ويعتبر المرابطون مسئولين عن أول محاولة محددة عن امتداد ونشر الاسلام في السودان (١) •

بعدما نزل بنو هلال وبنو سليم على افريقيه والمغرب ، اعتبارا من القرن الخامس الهجرى ، وما تلاه من ثلاث قرون ونصف قرن من الكفاح ، أن حرب الريف تماما ، بعد أن كانت المنطقة من السودان حتى البحر المتوسط عامرة بالسكان ، وبها كل مظاهر الحضارة والمدنية ، يشهد على ذلك معالم الآثار الموجودة بها من بقايا المدينة وأنقاض المبانى •

فقد كان أثر هذه الحملة بالغ التدمير في البلدان التى مرت بها ، مما جعل ابن خلدون يذكر عنها •

كان استيلاء مفسدى الأعراب على افريقيه ، وتخريبها واجلاء أهلها منها الى بلاد المسلمين ، وذهابا لشرائع بعدم من ينصرها من الملوك•

كما قال ابن أشــرف :

« أخبرنى من أثق به قال : خرجت من القيروان وسرت ليلا فكنت أكمن النهار فلم أمر بقرية الا وقد سحقت ، وأكلت وأهلها عراة أمام حيطانها من رجل وامرأة وطفل يبكى جميعهم جوعا وبردا ، وانقطع المير عن القيروان ، وتعطلت الاسواق ، وأمسك العرب جميع من أسروه ، فلم يطلقوا أحد الا بالفداء مثل أسرى الروم ، وأما الضعفاء والمساكين فأمسكوهم لخدمتهم » •

لقد ظهر بنو هلال في افريقيه في وقت كانت الأحوال السياسية تمهد لنجاحهم وتوفيقهم ، ذلك أن القبائل الافريقيه صاحبه الدولة والأمر قد اغرقت في الترف ، واستمرات الحضارة • وفقدت روحها العسكرية ومقوماتها

---

(١) Fage, I.D., A. History of West Africa. (Cambridge University Press 1969. pp 6-9

الحربية ، ولم يكن من المعقول أن تصمد أمام هذه القبائل البدوية الميالة الى القوة ، النزاعة الى العنف . كما أن الامارة التونسية أنقسمت على نفسها ولم تستطع ان توحد صفوفها وتجمع كلمتها فى هذا الوقت العصيب لذلك انتصر العرب الهلاليون . وهزمت الدولة الزيزيه هزيمة ساحقة .

وكانت هذه الهزيمة عظيمة الأثر فى تاريخ افريقية . ذلك أن عرب القرن الخامس الهجرى كانوا يختلفون عن عرب القرن الأول أصحاب الرسالة والدعوة والاصلاح . كان عرب القرن الخامس يغلب عليهم العنف والتمرد وعدم الخضوع لأى سلطان سياسى ، - فما كادوا ينتصرون فى افريقيه حتى عاثوا فيها فسادا ، أفسدوا المزارع ، واقتلعوا أشجار الزيتون ونهبوا المدن . وأحرقوها وأفسدوا الحقول المحيطة بها .

وحاصروا مدينة القيروان حاضرة الثقافة وكعبة الحضارة . فدخلوا عنوة وأعلوا فيها الدمار والخراب . ثم أخذوا يزحفون غربا يهددون مدن البلاد كما هددوا مدن افريقية (٢) .

وبعض الباحثين يشبه هذه الغارة « **الهلالية** » بغارات الجرمان على الدولة الرومانية فى القرن الخامس والسادس ، وهذا التشابه فى النتائج التى ترتبت على كلا الغارتين .

قوض الهلاليون صرح الامارة التونسية وأنشأوا امارات عربية صغرى يقاتل بعضها بعضا : وتحيل البلاد الى أتون ملتهب من الاضطربات والفوضى . ومن حيث أثر هؤلاء الأعراب الفاتحين فى حضارة البلاد (٣) .

وقد رأينا كيف أن ازدهار الثقافة العربية فى البلاد كان يستمد وجوده

---

(٢) Trimingham. op. cit., pp 80-85

(٣) Gustave Le Bon., La civilisation. Des Arabes. Librairie. De firmins -Didot., tt. Co. Paris. 1884. p. 267-259

بين عنصرين هامين : من الاستقرار والطمأنيه السياسية والاقتصادية ثم من الرخاء والترف وثراء الأمراء واغداقهم على أهل العلم والأدب وتشجيعهم على المضى فى طريقهم المرسوم .

وقد انهار العنصران ، عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى وتفرق شمال البلاد ، ونكبت افريقية نكبة اقتصادية كانت بعيدة الأثر فى تاريخها كله .

وقراءة مصدر شبه معاصر لهذه الأحداث المفجعة مثل الدباغ صاحب كتاب معالم الايمان ، يعطينا صورة صادقة لما تركته هذه الأحداث فى تاريخ الثقافة العربية فى البلاد ، فقد أصبحت القيروان ومدن افريقيه خرابا تلهتمها النيران وتحصد أهلها سيوف السفاحين من الغزاة . وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم . فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنية . ولم يكن أمامهم الا المغرب الاقصى فى ذلك الوقت . فقد استقرت أموره السياسية وبدأت طلائع المرابطين ، كما أسلفنا الاشارة ، فى صحراء المغرب تتأهب للوثبة الاصلاحية الكبرى ، بل أن بعض أهل افريقية من المشتغلين بالعلم لجأوا الى صقلية مثل أبو الحسن على بن رشيق القيروانى صاحب كتاب زهر الآداب .

وكان هذا الغزو العربى الكبير أعظم حدث له دلالته فى شمال افريقية الاسلامى . اذ انتشر العرب فى كل أرجاء الاقليم ، وعاشوا جنبا الى جنب مع البربر وامتزجوا بهم ، اذا استغرقت هذه العملية ثلاث قرون ، فقد أقام بنو سليم فى طرابلس لفترة ، وعبر بنو هلال تونس واتجهوا غربيها ، وانتشروا فى وسط الاقليم فى نصف القرن الثانى عشر ، واندفعوا هم وبنو سليم حتى وصلوا المحيط الأطلنطى فى القرن الثالث عشر .

وعمل الهلاليون فى خدمة صفوف الحكام . وكان نجاحهم أهم حدث فى تاريخ المغرب . ذلك لأن امرهم لم يقتصر على ادخال لغتهم التى اشتقت منها لهجات بلاد ـ الريف العربية ولكنهم نشروا أيضا حياة البادية على

حساب الزراعة وقلبوا الأوضاع السياسية فى شمال افريقية ، فى الوقت الذى كانت تسمى فيه الدولة الصنهاجية الى تحقيق وحدة المغرب ٠

ولا يمكننا أن نقدر طبيعة تاثير العرب فى شمال غرب أفريقيا الا اذا تذكرنا أن لفتوحهم دورين مختلفين كل الاختلاف ، وأن لهذين الدورين اثنوغرافية مختلفة كثيرا ٠

والدور الأول هو دور الفتوح الأولى التى تمت فى القرن السابع الميلادى ولم تخرج من كونها احتلالا عسكريا محدودا جدا ٠

ولو اقتصر العرب فى المغرب العربى على ذلك الاحتلال لاستوعبتهم جموع البربر ، وذابوا فيها فى بضعة أجيال ولكان أثرهم فى التمدن لا فى الدم ٠

حقيقة أنه تداول الحكم على القيروان من سنة ٨٠٠ الى سنة ٩٠٩ أحد عشر أميرا من الأغالبة ، انصرف همهم الى مزج العرب بالبربر ، وبالرغم من ذلك كان التأثير العربى ضئيلا للغاية ٠

الا أنه كان للغارة العظيمة الجديدة التي شنها الهلاليون شأن آخر ، اذ أنه لما جاء هؤلاء بأعداد عظيمة ، حولوا فريقا كبيرا من البربر الى عرب، وتدفق العرب كالسيل على افريقيه فى أواسط القرن الحادى عشر ، ودحروا ابربر الى جبال التل والى البقاع الجنوبية ٠

وكان الأمر غارة أمة لا غارة عسكرية ٠ وروى بعض علماء العرب أن عدد هؤلاء العرب الهلاليين كان مليونا ، وروى بعض آخر أن عددهم كان نحو ٢٥٠٫٠٠٠٠

والأرجح أن الغارة الأولى لم تلبث أن زحفتها غارات كثيرة أخرى ٠

وتمت تلك الهجرة ببطء ، ولم يملأ العرب شمال افريقيه الا بالتدريج

فقد جاوز العرب طرابلس الغرب ، بعد أن مكثوا بها سنتين • وزحفوا خطوة، ودلجوا فى الأودية جماعات على مهل ، واختلطوا بالسكان رويدا رويدا وزاد عددهم شيئا فشيئا •

وفرضوا بفضل كثرتهم على البربر عاداتهم ودينهم ولغتهم بعد بضعة أجيال • ولم يتركوا لأمراء البربر سوى سلطة وهمية •

وهكذا حققت الغزوة الهلالية كل ما كان يصبو اليه الفاطميون • اذ أن الهلاليين قضوا على كل حركة انفصالية تناهضهم السلطة والزعامة فى المغرب العربى •

فقد استمر استقرار العرب من بنى هلال وبنى سليم فى المغرب العربى الى أن أعاد يحيى بن تميم والى المهدية العلاقات الطيبة والحسنة بينه وبين الفاطميين فى مصر وخطب خطبة الجمعة باسمهم اعتبارا من عام ٥٠٥ هـ وأرسل الهدايا اليهم •

ومنذ ذلك الوقت ، عادت بعض من بطون بنى هلال الى صعيد مصر ، وعاشوا فى أخميم جنبا الى جنب مع اخوانهم الذين آثروا البقاء فى تلك الأماكن (٤) •

---

(٤) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ، الجزء الاول ، مكتبة النهضة المصرية : القاهرة ١٩٥٨ صفحة ٢٠٠ ـ ٢١٠ •
احمد مختار العبادى : المصدر السابق : ص ١١٢ ـ ١٠٥ •

الفصل السابع

« دور بنى هلال فى غرب افريقيا »

ان وصول قبائل بنى هلال الى المغرب يعتبر تحولا جديدا فى تاريخ الاقليم اذ أن العرب ظلوا يمثلون حتى تلك اللحظة أعدادا ضئيلة تمثل القشرة العليا للسكان ، استوطنوا المدن كارستقراطية حاكمة ، مع الوضع فى الاعتبار أن تلك القلة العربية امزجت بالبربر ، وعملت على نشر اللغة العربية والدين الأسلامى بيها ومع ذلك فقد ظلت معظم العناصر البدويه على وفاء للهجاتها البربرية المحلية. الى أن وصلت قبائل بنى هلال ، وهى تمثل هجوما تقوم به قبائل بأكملها ، ـ تستهدف الاستحواذ على مناطق جديدة للرعى ، وفى الوقت نفسه ، تمتلك قليلا من الحضارة الاسلامية وبالفعل استحوذت على المغرب العربى صاحب المدنيات العريقة ويصف ابن خلدون المؤرخ العربى التونسى الكبير بنى هلال « بانهم أسراب من الجراد تحطم كل ما يقف فى طريقها » .

فقد جاء بنو هلال كمستوطنين معهم عائلاتهم وزوجاتهم واطفالهم وآباؤهم ويتكلمون لهجة عربية مميزة فهم لم يؤسسوا دولا ، ويرجع تاريخهم الى الوقت الذى تشتت فيه البربر ، وتم انتشارهم ، لأنه قد نجم عن غزوة بنى هلال خلخلة فى كثافة البربر السكانية مما جعل كثيرا من بربر المغرب ذوى المدنيات العريقة ، يفرون أمام هؤلاء الجرذان ـ صوب الجنوب الى بلدان غرب افريقيا حاملين اليها مشعل الحضارة . وشهدت تلك الاقطار انطلاقة حضارية وفدت اليها مع طلائع البربر القادمة من الشمال .

اذ لجأ العديد من القبائل البربرية من السهول الى جبال موريتانيا وتحرك آخرون الى الصحراء • ففى حين تشبث بعض قبائل جبال أطلس وطوارق الصحراء الوسطى باللغة البربرية ، نجد قبائل الصحراء الغربية تضمير لغتها هى اللغة العربية كما تبنوا أيضا العادات والتقاليد والنظم العربية (١) •

فقد تم استعراب مغاربة موريتانيا وهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كما تم استعراب منطقة تمبكتو وما حولها فى القرن الخامس عشر بعد مجىء عرب بنى حسن وهكذا ظهرت فى الصحراء الكبرى بلدان عربية اسلامية ، وأما من بقى من قبائل البربر ، فقد أخذت تستعرب بالتدريج ، نتيجة الاختلاط والتزواج مع قبائل بنى هلال وبنى سليم ، فجمعت بين صفات العرب والبربر •

فقد وصل بنو هلال حتى الصحراء المغربية (ريودورو) ومنهم من احتل سهول الأطلنطى فى المغرب ومنهم من احتل المناطق الداخلية من فاس الى مراكش • وهكذا يرجع الى بنى هلال انتشار العربية والاسلام بشكل واسع جدا • وأصبح كثير من المساجد جامعات اسلامية كما فى فارس وتونس والقيروان • وغطت اللغة العربية كل افريقية الشمالية ومساحة ضخمة من الصحراء الكبرى حتى اقليم السافانا ، فوصلت الى منحنى نهر النيجر والى نهر السنغال •

وهكذا كانت الوحدة اللغوية هى نواة فكرة الوحدة العربية ، ويرجع انتشارها الى الانتشار العربى فى الغاية ، وكذلك انتشار الدين الاسلامى ايضا ، فهى لغة الدين أيضا ومن ثم نجد المسلمين الذين لا يتكلمون العربية يرددون القرآن الكريم باللغة العربية فى عباداتهم وفى الغالب يعرفون العربية الى جانب لغتهم الأصلية •

---

(١) Gustave, Le Libon, op. cit. pp 100-115

واذا كانت افريقية العربية وحدة لغوية متجانسة ، فليس معنى هذا أنها تخلو تماما من الأقليات اللغوية ، ولكن هذه الأقليات اللغوية ضئيلة من ناحية العدد ، هامشية من ناحية التوزيع ، فهى على الأطراف أو الجزر ، تراجعت أمام العربية كالبربرية التى تظهر احيانا فى واحات الصحراء أو فى جزيزة جويه فى تونس أو فى السفوح المرتفعة كما فى جبال أوراس والقبائل .

ويتكلم البربرية فى تونس ١ ٪ من مجموع السكان ، وتصل نسبتهم فى الجزائر الى ١٥ ٪ ترتفع فى المغرب الى ٢٠ ٪ فضلا عن أن هناك ١٤ ٪ يتكلمون العربية والبربرية (٢) .

ومن الدول الواقعة على أطراف الصحراء والتى تعتبر فيها العـربية أكثر اللغات الوطنية انتشارا موريتانيا وتشاد . فانتشارها فى موريتانيا لا يقل عن انتشارها فى المملكة المغربية . ذلك أن للهجات البربرية المختلفة هى وسيلة التعامل المحلية عند حوالى ثث سكان موريتانيا ، بينما الغالبية تستخدم العربية .

بل أن نصف بربر موريتانيا يمكنهم التعامل فى أمور الحياة العامة باللغة العربية ونفس هذا الوقت يتكرر فى كل المنطقة الممتدة من السنغال ومالى الى تشــاد .

وأهم تجمع بشرى فى هذه المنطقة يتعامل باللغة العربية فى تشاد ، حيث تعتبر اللغة العربية هى اللغة الأم لنحو ٦٠ ٪ من سكان ، بينما لا يزيد نصيب اللغات الأخرى مجتمعة على ٤٠ ٪ من سكان البلاد .

وهكذا يرجع الفضل الأكبر فى انتشار اللغة العربية الى هذه الرقعة الفسيحة من غرب أفريقيا الى هجرة بنى هلال وبنى حسن وبنى سليم الى

---

(٢) عبده بدوى . المصدر السابق ص ٨٠ ـ ص ٩٠ . وانظر أيضا :
عبد الغنى سعودى قضايا افريقية . المصدر السابق ص ١٠٠ ـ ص ١٠٥ .

المغرب العربى ، وما أحدثته من نزوح كثير من المغاربة الى البلدان الواقعة جنوبهـا .

فقبل غزوة بنى هلال ، لم تكن الصلات بين عرب المغرب وبين سكان الصحراء الكبرى على درجة كبيرة من الترابط ، لأن العرب كانوا انذاك قلة لم يتمكنوا من السيطرة على تلك الصحراء سيطرة مباشرة ، ومع ذلك فقد كانت جماعات منهم تجوب مناطق فزان وجنوب مراكش وعموما تستطيع القول ، بأن العرب فى تلك الفترة كان شأنهم شأن الرومان والقرطاجنيين من قبل ، يميلون الى تلك الصحراء والمسئوليات المباشرة لحركة التجارة الصحراوية للعناصر الطوارقية .

لكن الأمر اختلف هذه المرة مع مجىء بنى هلال الى المغرب ، فقد بدأت عملية انتشار الاسلام على الأقل فى الأجزاء القريبة من الصحراء الكبرى فى القرن الحادى عشر اذ انتقل الاسلام بصورة واضحة الى أفراد قبائل صنهاجة الطوارقية التى كانت تتحكم فى طريقة القوافل بين غانا ومراكشش وبدأت تتحول غانا وكانم خلال فترات ازدهارهما الى الاسلام ، وكان ذلك نتيجة لعلاقاتهما بأفريقيا الشمالية . وكان لهذا الدور نتائجه البالغ الأهمية لكل من المغرب والسودان الغربى على حد سواء .

ومن الثابت تاريخيا أن الذى أسس سلطنة « كانم » التى تقع شمال شرقى بحيرة تشاد هم جماعة الطوارق المسلمون التى أخذت تهاجر الى هذه الرقعة فى أواخر القرن الحادى عشر أمام حجافل بنى هلال فى المغرب العربى . اذ عرف الاسلام طريقة الى هذه المنطقة فى هذه الفترة . وبذلك أصبحت دولة ذات أهمية عظمى وبسطت سكانها على قبائل السودان الشرقى حتى حدود مصر وبلاد النوبة ويقال أن أول ملوك « كانم » كان من المسلمين ، تولى الحكم حوالى نهاية القرن الحادى عشر أو النصف الأول من القرن الثـانى عشر الميلادى ، ان مملكة « كانم » كانت فى عصره تمتد حتى نهير النيجر

غربا ، وكانت تضم جزاء من بلاد «الحوصا» (٣) •

وقد استعان أهل « كانم » بالحفصيين فى تونس واستطاعوا أن يفتحوا الصحراء كلها فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد تضاعفت قوة هذه البلاد فى المائة سنة التالية ، وكان لهذه السلطنة بعد أن اتسع نفوذها على هذا البحو ، دور كبير قامت به فى ميدان النشاط الاسلامى فى منطقة تشـاد والسودان الشرقى وبلاد الحوصا •

وساعدها جوارها من مصر وبلاد المغرب من أن تتصل اتصالا مباشرا بمراكز الثقافة الاسلامية فى هذه البلاد •

فقد كانت للكانميين هجرات وجاليات كبيرة العدد فى أسواق مصر ودور العلم فيها • كما وضحت بصورة أقوى نفوذا وتأثيرا عندما تركت تجارة مصر الخارجية فى أيدى التجار الكانميين ، وأصبحوا يسيطرون على جزء كبير من اقتصاديات البلاد ومصارفها المالية •

وهكذا كان لبنى هلال أثر عميق فى توطيد أسس التعاون العربى الأفريقى بصورة واضحة وملموسة تعتبر هجـرة بنى هـلال للوهلة الأولى هجـرة تدميرية ، الا أن ـ النظرة المتأنية والثاقبة لنتائج هذه الهجرة يجيىء تقيم عكس وذلك تماما •

حقيقة أن هجرة بن هلال تطبعت بطابع العنف فى مطلع أمرها فى بلدان المغرب العربى ، حيث أنها كانت تؤدى المهمة التى من أجها أرسلهـا الفاطميون ، لكن ما لبث بعد ذلك أن تعايش الهلاليون مع البربر فى كل مكان ، وأدوا معا أدوارا فى غاية من الأهمية فى الصحراء الكبرى وفى بلدان غرب افريقيا • ووصل الهلاليون والبربر الى منطقة أدرار والسنغال الأدنى

---

(٣) عنايات الطحاوى • ـ افريقيا الاسلامية •
المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٧٠ القاهرة • ص ١٢٠ــ١٢٢ •

فى نهاية القرن ١٦ ، استتبع ذلك بطبيعة الحال نشر الاسلام فى تلك المناطق ومن أدلة انتشار النفوذ العربى فى غربى افريقيا أنه قلما أن تجد بيتاً حاكما الا ويدعى شرف الانتساب الى أصله العربى ، فبعضهم كان يدعى نسبا علويا أو امويا أو عباسيا أو فاطميا ، وبعضهم يدعى نسبا يمنيـا .

ومن الهجرات الهامة التى كان لها شأن فى غرب افريقية هى هجرات «الفولانى» ، ويظن أنها هجرات بربرية ، وفدت على الحياة فى منطقة غرب أفريقيا ، وأنهم أتخذوا من منطقة أدرار شمال السنغال ، واندفعوا الى السودان الغربى بعد طرد المسلمين من الأندلس ثم تسربوا الى الحياة هناك يشتغلون بالرعى أو الزراعة أو التجارة والطوارق الذين نشروا الاسلام فى غرب أفريقيا كانوا من البدو النازلين فى المغرب الاقصى ، وتمتد ديارهم من جنوب مراكش حتى حوض السنغال والفولانى الذين عملوا على نشر الاسلام فى شمال نيجريا ومنطقة بحيرة تشاد كانو أيضا من هذا القبيل .

وكان للطوارق فضل التفوق على الزنوج لسرعة الحركة المتاحة لهم بسبب استخدامهم الخيول والجمال ، ثم اندماجهم بعد ذلك مع أهل البلد من الزنوج مما نتج عنه ظهور مؤسسات ثقافية عربية اسلامية وتجارية مثل تمكتور وحتى وجاع ، ويعيش الطوارق حاليا وسط الصحراء الكبرى فى المثلث المحصور بين غدامس وتبكتور واير ، ومما شجع الهلاليين الى التوغل بسهم وافر فى قلب الصحراء الكبرى ، هو استخدامهم الجمل بأعداد كبيرة جدا ، وعن طريقة استطاعوا الولوج الى المناطق العشبية على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ، لذا لم تقف الصحراء حاجزا أمام سكان الشمال بل أصبحت طريقا مألوفا للتجارة على أيدى الهلاليين وأحلافهم (٤) .

وليس بمستغرب أن يعلن أن وجود الهلاليين فى أقطار شمال افريقيا ،

---

(٤) J. Spencer Tremingham. op. cit. pp 80-81

تقضى بشكل نهائى على مغاليق الصحراء ، ففتحت أبوابها على مصاريعها للتجارة الدولية ابتداء من القرن الحادى عشر فصاعدا ، أى بعد تواجد بنى هلال فى المغرب العربى ٠

على أن ينبغى نذكر أن استخدام الجمل بوفرة ، ليس معناه القضاء على كل مشاكل الصحراء اللانهائية والتى من بينها احتمال الضلال ، ولم يكن لذلك من بد سوى أن يلقى الانسان حتفه ٠ وكان بنو هلال من أحسن الناس دراية وخبرة بدروب الصحراء ، لأنهم أتوا أصلا من منطقة صحراوية لا تقل فى وعورتها وقسوتها عن صحراء غرب أفريقيا ، وبالطبع لهم فى هذا الميدان صولات وجولات ، نظرا لمعرفتهم الواسعة بأسرار الفلك ، ورصد النجوم الى غير ذلك من أمور يجيدها بنو هلال من بينها ، أن يكون للقافلة دليل يعرف كيفية الاهتداء الى دورب الصحراء عن طريق الشمس أو النجوم أو غير ذلك من الوسائل الفلكية التى نبغ فيها العرب نبوغا منقطع النظير ولهم فيها مؤلفات لا يزال يهتدى بها الى اليوم ٠

كما بعض أجزاء القافلة ، قد تنقطع عن الاتصال ببقيتها ، ولذا كان الاحتفاظ بوحدة القافلة أمرا فى غاية الأهمية ، وذلك بربط ذيل الجمل الأول برأس الجمل الثانى بحبل ، ولابد أن يكون هذا الجمل قد تعود الرحلة قبل ذلك ٠

وبالطبع أول من أدخل هذه الطريقة الى قوافل صحراء غرب افريقيا هم بنو هلال وبنو سليم ، والتى اقتبسوها عن طريق درب الأربعين فقط لخبرتهم الطويلة بشأنه (٥) ٠

ولذا كان يعمل فى قافلة الصحراء الكبرى عشرات الآلاف من الجمال ،

---

(٥) Gebriel Hanotaux., Histoire De La Nation Egyptienne. Tome VI pp 400-404

فلابد اذا من نظام محكم للهيمنة على خط سيرها لمسافات طويلة جدا ، فالى جانب الدليل لابد من وجود منظم للرحلة ، يكون مسئولا عن وقت القيام والراحلة وعن حسن تحميل القافلة وترتيب أحمالها ، يعمل الخدم وفقا لأوامره ، والا تعطلت القافلة ، بسبب سوء توزيع الأحمال • حين يموت الحيوان الذى يحمل أكثر من طاقته ، وليس هناك خبراء بشئون الحمل أكثر من العرب • كما أنه اذا وصلت القافلة الى ما قبل الواحة ، بقليل ، أرسلت من يدعى بالتكشيف ليعلن أهل الواحة بخبر وصول القافلة وعدد أفرادها ، ليستعد أهلها لاستقبالهم وانزال أفرادها فى مساكن تؤجر لهم ، كما يقوم أهل الواحة باعداد ما تحتاجه القافلة من مؤونة وعتاد ، حتى اذا وصلت القافلة ، وجد أفرادها كل شىء مهيئا لشرائه أو استبداله أو استئجارة ، وقد يستعد أهل الواحة بأموالهم لشـراء ما يريدونه أو يعدون مكـانا ــ للسـوق يهيئونه ولما كانت الرياح والعواصف ألد أعداء القافلة الصحراوية ، من حيث أنها تحمل ذرات الرمال الرقيقة ، بل تدفع بها الى كل أجزاء جسم المسافر ، فتكون كالسكاكين الحادة ، ويكون آلامها مريعا • واذا تراكمت ذرات الرمال حول الواقف قبرته فى بضع دقائق ولذا لابد من سرعة الحركة خلال هبوب العاصفة ، كما أنهم تغلبوا على مشكلة سرعة الرمال بارتداء اللثام على وجوههم حتى أنوفهم ، واقتبسوا هذا الزى من بنى هلال ولهذا لقب الطوارق بالملثمين •

كما نقل هؤلاء الملثمون آداب القافلة من هؤلاء العربان الهلالية ، اذ أن ــ للمسافرين فى القافلة آداب لابد أن يسلكوها • منها اذا وصلت القافلة الى غايتها ، كأن على منظم الرحلة أن يسعى ومعه كبار أفرادها ــ لمقابلة سلطان المكان الذى وصلوا اليه لتقديم فروض الطاعة ودفع المكوس ، ولابد أثناء مقابلتهم للسلطان من اتباع مراسيم المقابلات السلطانية يتعلمونها من أصحاب البلاد •

فهذه الأخطار التى تتعرض لها القوافل ، وهذه الآداب التى يلتزم بها

أفرادها من أجل سلامتهم ، ومن أجل انجاح أغراضهم ، كلها أمور عرفهـا العرب الذين قدموا أصلا من شبه الجزيرة العربية الصحراوية • واستقرت معهم فى شمال أفريقيا ، ونقلوها بالتالى الى غرب أفريقيا (٦) •

---

(٦) Fage., op. cit. pp 8-10

الفصل الثامن

« بنو هلال فى السودان » (*)

كان لبنى هلال علاقات بدارفور غربى السودان ، ويبدو أن وجودهم فى تلك الجهات كان عن طريق مصر وشمال غرب أفريقيا . اذ من المعروف أنه قامت فى دارفور سلطنة اسلامية فى منتصف القرن السابع عشر ، ومثلت بذلك واحدة فى سلسلة الممالك الاسلامية السودانية الواقعة بين الصحراء الكبرى ومصر فى الشمال وبين الغابات الاستوائية فى الجنوب وتمتد من البحر الأحمر شرقاً الى المحيط الأطلنطى غرباً وهى تشمل ممالك سنار ـ وكردفان ودارفور وواداى وباجرمى وبرنو أو الكانم وممالك الحوصة .

ويحيط بنسب السلطان سولونج أول سلاطين دارفور الغموض ، فثم رواية تقول أنه عربى من بنى هلل ، وأنه اتصل بالغور عن طريق المصاهرة وهناك رواية ثانية تذكر أنه قد وفد على دارفور جماعة من عرب بنى هلال بزعامة أحمد المعقور الهلالى النسب . ورواية ثالثة تقول أنه سبق حكم سليمان سولونج أربعة عشر سلطانا يحملون اسماء عربية ومما زاد هذه الروايات اضطرابا ادعاء كل من الكنجاره والتنجور الانتساب الى بنى هلال .

والراجح أن الكنجارة ـ وهم خليط من العرب والغور ـ صاهروا التنجور، ونشأ عن هذه المصاهرة ظهور أسرة كبيرة التى انتزعت حكم دارفور من

---

(٧) محمد بن عمر التونسى . تشحيذ الاذهان لسيرة بلاد العرب والسودان، المنهج العربى للتاليف والنشر ص ١٠٠ ـ ١٠٥ .

د . محمد المهدى صديق

التنجور • وكان السلطان «والى» أول سلاطين هذه الأسرة ، ثم خلفة ابنه «كورو» ثم سليمان بن كورو وهو سليمان سولونج ومما يؤيد اتصال سليمان بالنسب العربى أن لقب سولونج فى لغة الغور معناه « العربى » أو « من يتكلم العربية » أو « من يدين بالاسلام دين العرب »

ومع أن الاسلام أخذ يشق طريقه الى دارفور منذ حوالى القرن الثالث عشر الميلادى حيث أخذت تنهال عليه الهجرات العربية من الشمال والشرق والغرب فان الاسلام لم يصبح الدين الرسمى للبلاد حين تولى سليمان سولونج عرش سلطنة دارفور سنة ١٦٤٠ م ومنذ ذلك الحين بدأ اقليم دارفور يدخل نطاق التاريخ العام •

ومما يجدر الاشارة اليه ، أن للهلاليين قصب السبق بين موجات الهجرات العربية المتجهة الى دارفور ، وعبرت تلك الموجات المتدافعة السهول والبرارى الواقعة بين النوبة وتشاد ، خاصة واذا علمنا أن دارفور ليس بينها وبين تلك البلاد حواجز جغرافية ولا فروق مناخية أو نباتيه • فكان الهلاليون يجوبون تلك البلاد دون حواجز طبيعية •

ويعد وجود كثير من الهلابيين فى دارفور ، توطدت علاقة الغور بالازهر الشريف ، وكانوا يتلقون فيه علومهم الدينية واللغوية •

وبالاضافة الى هذا الجانب الثقافى ، فقد لعب الهلاليون دورا طيبا فى تقويه الصلات التجارية بين شطرى الوادى ، مصر والسودان حيث كانت لهم خبرة طويلة بدروب طرق القوافل الصحراوية وعلى رأسها درب الأربعين الذى يبدأ من أسيوط وينتهى عند الفاشر عاصمة دارفور • اذ كان لبنى هلال تجارة مهمة مع كردفان وبحر الغزال ووادای • اذ كان يرد الى مصر من تلك الجهات ، من عشرة الى خمسة عشر ألف جمل محملة بالرقيق والريش والصمغ والتمر هندى والجلود •

ومن الجدير بالاشارة أن هذه القوافل كثيرا ما كان يصحبها العلماء ، حيث أن للعلم والعلماء مكانة سامية فى نفوس الأهالى · وكأن مجرد وجود عالم بين القافلة كفيل فى ألا يعترض طريقها قطاع الطرق ·

وخروجا على دائرة العرف التقليدى الشائع فى السودان أن كل قبيلة عربية فيه ، تدعى شرف الانتساب الى النبى صلى الله عليه وسلم أو الى أحد أصحابه أو من اتصل بهم ، الا أن عامة أهل دارفور تدعى شرف نسبها الى أبى زيد الهلالى ، وخاصة بعد أن قامت فى مصر وشمال افريقيا دول اسلامية مستقلة عن الخلافة الاسلامية ·

اذا اختلفت الآراء فى أصل التنجور ، فهناك رأى يقول بأنهم من النوبيين وبنى هلال ، وأنهم هاجروا من بلاد النوبة فى القرنين ١٥ ، ١٦ للميلاد واشتهروا هناك باسم التنجور وأسسوا دولة فى شمال دارفور وعاصروا دولة الداجو فى جنوب جب مرة · ومن التنجور جماعات موزعة بين دارفور ووادى وكانم وبرنو (٢) ·

ويتضح مما سبق أن التأثير السلالى لبنى هلال فى كردفان ودارفور واضح جدا على أن هناك رأى يقول بأن هناك تأثير سلالى لبنى هلال فى شرقى السودان كذلك · وهذا الرأى يرجح هجرة بنى هلال أصلا عن طريق البحر الأحمر بعد نزوح هجرات هلالية من غير موطنها الأصلى واستقروا بأعداد غفيرة فى اليمن اذ لازالت الى الآن قرى كثيرة فى اليمن تحمل اسم بنى هلال · ونحن نعلم مدى اتصال اليمن بالبحر الأحمر منذ فجر التاريخ ·

والذين يذهبون الى رأى نزوح هجرات هلالية عن طريق البحر الأحمر ، فانهم يعتمدون فى ذلك على العامل الجغرافى ، حيث يقترب السودان من

---

(٢) محمد عوض محمد · السودان ووادى النيل · مطبعة جامعة القاهرة ص٧٥ – ٨٠ ·

الجزيرة العربية ولا يفصلها سوى البحر الأحمر •• والذى لم يكن فى أى وقت من الأوقات حاجزا يمنع الاتصال بين الشواطىء الأسيوية العربية وبين الشواطىء الأفريقية فى مقابل السودان ولا يكاد اتساع البحر الاحمر يزيد على المائة والعشرين من الأميال ، وليس من الصعب اختيازه بالسفن الصغيرة (الدهبيات) ، وفى الجنوب يضيق البحا الأحمر جدا ، عند بوغاز باب المندب حتى لا يزيد على العشرة أميال ، وجميع الكتاب يسلمون بأن الاتصال بين الأطراف الجنوبية لجزيرة العرب وبين السواحل الأفريقية التى تقابلها ، امر قديم • الا أن المدقق يجد أن الجماعات الهلالية التى ذهبت الى شـــرق السودان عن طريق البحر الأحمر ، كانت قليلة ومتناثرة ، بالاضافة الى أنها نزحت الى تلك البلاد فى أزمان مختلفة ـ مما سهل على سـرعة ذوبانهـا وامتصاصها فى القبائل العربية الموجودة بينها ، وبناء عليه لم تستطيع أن تحتفظ بكيانها زمنا طويلا ، وصار الانتساب الى الهلالية بسيطا ومحدود الاثر فى شرقى السودان (٣) ••

ولو أن بنى هلال كان أساس هجرتهم صوب شرق السودان ـ لوضح فيه أثرهم السلالى ، ولا أصبحت لهم فى وقتنا الحالى ة بقايا واضحة المعالم •

فمن خلال استعراضنا لتاريخ الهجرات العربية الى السوادن ، يتضح لنا أن هجرة بنى هلال عن طريق البحر لا تمثل كل شىء بالنسبة لهذا القطر الشقيق : يتضح ذلك من خلال سردنا التاريخى لمصر ، اذ تأثر السودان بعروبة مصر منذ الفتح العربى الاسلامى فى تاريخه المبكر • فبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مصر ، فكر فى فتح بلاد النوبة ، فارسل عبد الله بن سعد بن سرح فى عام ٢٢٠ هـ / ٦٤٢ م ومعه عشرون الف مقاتل لغزو بلاد النوبة ، ونجم عن تلك الجملة قبول أهلها دفع الجزية • ولما عين عبد الله بن سعد واليا على مصر ، نقض النوبيون عهدهم للدولة الاسلامية • مما

---

(٣) Gabriel Hanotaux. op. cit. 406-408

جعل الوالى المصرى يفكر فى حصار دنقلة ورميها بالمنجنيق ، وأذعن فى الحال ملك النوبة وأخذت أفواج العرب تنزح الى السودان من مصر ثم من الحجاز واليمن ٠

وبلغ عدد القبائل العربية التى وفدت الى مصر والسودان ، وخاصة بعد سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠م ، ٢٢ قبيلة ، فقد فر الأمويون على أثر سقوط دولتهم الى مختلف الأقطار الاسلامية ، خاصة مصر والسودان ، وبلغ عدد القبائل الوافدة اليهما فى عهد الدولة العباسية ٣٣ قبيلة ، وكان من عواقب تلك الهجرات العربية الى السودان أن تكونت دويلات وسلطنات وامارات ومشيخات اسلامية ، تخص بالذكر منها مملكة سنار وسلطنة دارفور ٠

وينبغى هنا أن نشير أن الدماء العربية الهلالية فى دارفور أقوى وأوضح عما فى مملكة سنار ٠

ومن المناسبة هنا أن نورد تلك الحقيقة ، وهو أن وادى النيل هو الطريق التقليدى المألوف الذى عبرته أفواج عربية أخذت تنزح من صعيد مصر الى شمال السودان من آن لآخر وزاد عددهم بالمهاجرة والمصاهرة ٠ ومنذ عهد الدولة لطولونية بمصر الى عهد المماليك والأتراك ، اضطهد الحكام والولاة غير العرب ، أبناء القبائل العربية ٠

أذ من المعروف أن حال العرب قد ساء فى العصر المملوكى ، وكثرت اضطراباتهم واشتد قمع المماليك لهم ، وعهد المماليك الى جانب الحملات التأديبية الى مضاعفة الضرائب المفروضة على هؤلاء العرب ، فلم يجد العرب تنفسا لهم الا الاندفاع الى ــ الجنوب (أى شمال السودان) وبالطبع كان من بين القبائل العربية المهاجرة الى ربوع السودان ، قبائل بنى هلال ٠

وينبغى أن نقرر فى شىء من الحيطة وعدم المغالاة ، أنه توجد العشرات بل المئات ممن كانوا يطلقون على أنفسهم القاب الملوك والسلاطين ، فى حين

أن بعضهم لم يكن يزيد فى عهده عن شيخ بلد او شيخ خفراء ــ وأن الرعايا لم يزيدوا عنكونهم حفنة من الناس او أفراد أسرة واحدة ٠

ويبدو أن اتخاذ مثل هذا اللقب يرجع الى محاكاة ما كان عليه الحال فى بلاد الزنوج والسكان الاصليين للسودان او الى نزوعهم الى الاستقلال او للسببين معا ٠

ومن المحتمل جدا أن يكون من هذا القبيل ، نزوح أفراد قليلة من بنى هلال الى مكان ما فى شرقى السودان وعملت على استيطانه ، وأخذت الاقاصيص تنسج من حولهم الخيال ٠

ولقد كان من بواعث سكنى الهلاليين فى هذه الجهات ارتياد المراعى والأراضى الخصبة والرغبة فى ــ أراضى المستنقعات التى يسكنها الزنوج ، وقبل كل ذلك نشر الاسلام ، خدمة العرب ونجم عن هجرات بنى هلال الى ربوع السودان ، وجود أماكن فى وقتنا الحالى تحمل اسم بنى هلال مثل الزيادية ومركزها مليط وهم ينسبون الى أبى زيد الهلالى ٠

أما التعايشه » ومسكنهم مندره ، فينتسبون الى السودان وحدات من الخلف الهلالى القديم ، تحمل كل وحدة منها اسمها الخاص بها مثل بنى سليم وبنى فزارة الذين كانوا من حلفاء هلال منذ البداية ٠

وفى السودان اليوم قبيلة تعرف بأسم بنى سليم ، وتنتمى الى مجموعة البقارة وتعيش فى النيل الابيض ٠

ويبدو من دراسة المجموعة «الفزارية» فى السودان أن لها ببنى هلال ، وتنتمى قبيلة «الزيادية» الى مجموعة «بنى فزاره» ٠ وكان القسم الاكبر من هذه القبيلة فيما مضى ، يعيش فى دارفور ، وقليل منها فى كردفان ، غير أن الزيادية فى دارفور تعرضوا لاضطهاد شديد زمن الثورة المهدية ثم زمن السلطان « على دينار » ومن ثم اضطر معظمهم الى المهاجرة الى قرب مواطن «دار حامد»فى كردفان

حيث أصبحوا من زعاة الابل • ولم يبق من الزيادية فى دارفور فى الوقت الحالى سوى عدد قليل ومما أسهم فى نقصان عدد الهلاليين فى دارفور هى كثرة الحروب التى كانت تنشب بين القبائل وبعضها البعض (٣) •

وعموما يجدر الاشارة أن التاثير السلالى للهلالية أكثر بروزا فى غرب السودان عنه فى شرقيها • ألا أن ذيوع سيرة الهلاليين اجتاحت بالسودان ، شرقية وغربية على حد سواء • مما كان له أثر بالغ فى الحياة الاجتماعية والثقافية لدى عرب السودان اذ شدت أذهانهم وانبهرت لهجرات الهلاليين باعداد كبيرة الى شمال افريقيا ثم الى غربيها وأخذت الالسنة تتداول أمر تلك الهجرات الهلالية كنوع من أنواع البطولات المجيدة وكظاهرة فريدة لايمكن تكرارها بسهولة •

ولقد كانت سيرة «أبى زيد الهلالى» السلوى التى يلجأ اليها الافريقيون فى تجمعاتهم وأمسياتهم وأعيادهم ومناسباتهم الاجتماعية المختلفة • وهكذا وجد فولكلور شعبى افريقى على مسطح جغرافى واسع من القارة الافريقية شمال الوادى وجنوبه أى مصر والسودان وشمال افريقيا واقطار أخرى من غرب القارة ، فيما يمكن أن نتجاوز ونسميه افريقيا خارج مجال اللغة العربية • وهكذا أغرقت أعمال «أبى زيد الهلالى» الأدب الافريقى فوجد تيار فكرى شعبى (فولكلورى) الى جانب التيار الأدبى •• •

وكانت سيرة«أبى زيد»تعالج حقا مواقف وموضوعات مستوحاة ومستمدة من الحياة اليومية والمعقدات والقيم الاجتماعية السائدة أو من الميثولوجيا ، والمعقدات وتطايرت سيرة «أبى الهلالى» كقائد وكزعيم على كل لسان فى البوادى والقرى العربية ، وأصبح كل جيل يضيف على سابقة لهذه القصة الأسطورية بما يطاوعه اليه خياله الخصيب ، حتى صارت أعمال «أبى زيد» الخارقة فى

---

(٣) محمد بن عمر التونسى : المصدر السابق ، ص ، ١٢٢ ـ ١٢٠ •

الخيال أسطورة تتناقلها الأجيال عبر الزمن تهفو النفوس لسماعها وتطرب الأفئدة لذكرها • وتتلذذ الأذن عند ترنيمها (٤) •

ولذا سنجد للهلالية فى السودان جانبين ، جانب قصصى أو شعبى متمثل فى سيرة أبى زيد الهلالى ، وجانب سلالى •

وبلغ التعصب لتغريبة بنى هلال فى السودان أن حرف السودانيون فى خط سير التغريبة ، فأنكروا على صعيد مصر اسهامه الضخم فى هجرة الهلاليين الى بلدان العالم العربى فى القارة الافريقية ومن بينها السودان •

واستبد الخيال بعرف السودان الى حد تصورهم أن «بنى هلال» وفدوا على السودان مباشرة من بلاد نجد فى شبه الجزيرة العربية اذ نزوا أول ما نزلوا فى « كسلا » حيث كانت « كسلا » فى تلك الآونة مدينة تجارية هامة ، ثم عبر الهلاليون النيل الأبيض واتجهوا الى غرب السودان ومنها اتجهوا الى تونس وشمال افريقيا لمحاربة المغاربة •

وهذا الرأى مناف للحقيقة التاريخية التى سبق أن أوضحناها فى الفصل الخاص ببنى هلال فى المغرب العربى ، وذكرنا فيه أن سبب نزوح الهلاليين الى بلدان شمال افريقيا هم الفاطميون الذين حكموا مصر ، وتجمع المراجع العربية والأجنبية على صحة هذا الرأى ، اذ هاجرت جموع من بنى هلال الى هذه البلدان من صعيد مصر وليس من السودان وعلى ضوء هذا فنحن لا نتفق مع الروايات المحلية والقصص الشائعة والتى يموج بها غرب السودان، والتى تحوز فى مسيرة بنى هلال ، وتجعل من السودان منطلقـــا أساسيا لتغريبة بنى هلال فى حين وفدت من السودان هجرات من بنى هلال الى

---

(٤) عبد الرحمن زكى • تاريخ الدولة الاسلامية السودانية بافريقية الغربية ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٦١ • ص ١١٥ – ١٣٠ •

كردفان ودارفور عن طريق شمال وغرب افريقيا ـ وهى فى طريق عودتها مرة ثانية الى وادى النيل •

ونذكر هنا عرضا على سبيل المثال ، أن كثير من أفارقة غرب أفريقيا، وخاصة مسلمى السنغال ، ونيجريا ، عند ذهابهم الى مكة أثناء موسم الحج، كثيرا ما كانت تستهويهم فكرتا لاقامة بالسودان ، فيستوطنون فيه بصفة دائمة • ويصيرون مواطنين سودانيين • وعلى هذا الأساس لو قدم بنو هلال من غرب القارة الى السودان ، فهذه فكرة ليست بطارئة عليه • وهذا يؤكد التصاق السودان (كردفان ودارفور) بغرب أفريقيا مما يدحض الزعم القائل أن عرب بنى هلال كانت أول هجراتهم الى مدينة كسلا شرقى السودان •

ومن الثابت تاريخيا ، أن الهلاليين نزحوا الى السودان بعد التغريبة بزمن كبير يقدر بحوالى ثلاث قرون •

الفصل التاسع

« بنو هلال والتراث الشعبى » (*)

بعد العرض السريع السابق لانتشار الهلاليين من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام ومناورتهم للعباسيين ونزولهم مصر ثم انتقالهم الى بلدان المغرب العربى ، كانت الخطوة التالية لسرعة خفتهم وتنقلاتهم ، ان غلفوا أعمالهم هذه بهالة من الشجاعة والشهامه ودونوها واصبحت لا تقل فى روعتها وجلالها عن المعلقات فى العصر الجاهلى • حقيقة أن الهلاليين تركوا تراثا شعبيا غنيا تردد صداه فى مصر والسودان والمغرب العربى وبلاد الشام • فملحمة أبى زيد الهلالى كان يرددها الأبناء عن الآباء ، والأحفاد عن الاجداد •

فأبو زيد الهلالى يمثل القيادة العربية الأصيلة التى تلتف حولها جموع الشعب فتستمد القيادة قوتها من شعبها ، وفى الوقت ذاته يضفى الشعب على قيادته كل مقومات الزعامة وأصولها ، فلا غنى لشعب عن قيادة وزعامة صالحة واعية ، ولاغنى لزعيم يستلهم زعامته وقيادته من شعب ملتف حولة فالشعب والقائد كل لا يتجزأ ، كما تصور لنا القصة حياة الصحراء ودروبها • والريف والحضر ، والخيال والواقع والحق والباطل ، ومناصرة المظلوم والأخذ بيد الضعيف واغاثة الملهوف والوقوف ضد الطغاة والمستبدين ، ومناهضة الظلم ومقاومته بشتى السبل ، ومع كل هذه المعانى فان القصه قد صورت لنا حياة البادية فى شبه الجزيرة أصدق تصوير فصورت الفضائل وحثت عليها ولم تنس أيضا أن تبرز الرذائل وتنفر منها ومن هنا كان سر خلود

(*) د • السيد حنفى عوض

قصـــة أبى زيد الهــلالى فقــد اشتملت تلك القصـــة على مســـيرته وانتصاراته فى كل ميدان يخوضه لا لانه كان مجرد قوة خارقة ولكن لأنه يمثل الزعامة الحقيقية ٠

والقارىء لملحمة «أبى زيد الهلالى» يتنقل سريعا من بداوة الصحراء وقسوتها فى شبه الجزيرة الى الخضرة والنضارة والثراء فى مصر والشام والمغرب العربى ، ومن هنا كان حق أى مواطن عربى فى الاقامة فى أى مكان يشاء فى تلك البلدان الواقعه بين الخليج العربى والمحيط الأطلسى ، ففى أى بلد عربى ينزل سهلا ويلقى أهلا طالما يسودها جميعا تيار الشعوب الصادق ٠

واذا ما انتقدنا الى أيكولوجية الجزيرة العربية نجدها تتصف بالقسوه اذ أن مساحة الأراضى الصالحة للزراعه بسيطة ، يندر فيها المطر مما يجبر السكان على الترحال والتنقل المستمر ٠ وتنقسم شبه الجزيرة العربية الى خمسة أقسام طبيعية تهامة والحجاز ونجد واليمن والعروض وتنحصر مواطن الخصوبة فى اليمن وحضر موت والاحســاء فقط ٠ أما « نجد » التى نعنى بدراســـتها فهى مجرد اقليم صحراوى فرضت طبيعته القاسية على الأهالى ســـرعة الحـــركة والنشـــاط والخفة والهجرة من مكان الى آخـــر وجل اعتمادهم علي الأغنام يأكلون لحومها ويشربون البانها ويغلب عليها ايضا صفة التجارة التى تعتبر قوامها الاقتصادى ٠

وكانت هذه الجماعات البدوية تؤلف قبل الاسلام قبائل تنازع بعضها الرئاسة والزعامة والحياة ٠ وانقسمت هذه القبائل بدورها الى جماعات خلقت لنفسها انسابا تفاخر به وتجعل منه مجالا للمكانه بين سائر العرب حتى أصبح لكل قبيلة عصبيتها الخاصة بها وشعراؤها الذين يتباهون بانسابهم وأمجاد قبيلتهم وينقلون هذه الظاهرة أينما ساروا وأينما حلوا ٠ وبالرغم من التضامن القوى بين القبيلة الا أن تشعب بطونها كان يؤدى الى تنافس افراد كل بطن فى الشرف والثروة ٠

ولما رحلت قبائل بنى هلال من موطنها الأصلى فى نجد الى مصر وتونس والسودان ودارفور ، اتخذوا من ذلك ميدانا للمباهاة والمفاخرة ساعدهم على ذلك ما كان ينعم به العرب من حياة شعرية وأدبية رائعة وجاءت ملحمة « أبى زيد الهلالى» خير شاهد على ذلك التراث العربى الضخم تضمنت ما لقيه وصادفه « بنو هلال » من أهوال ومعارك ومكايد وحيل وهوى وغرام وهم فى طريقهم الى المهجر الجديد ونسجوا هذا كله بخيال خصب فكانت واحدة من سلسلة من روائع الأدب العربى الشعبى (الفولكلورى)) (١) ٠ لا تكاد تخرج عن الاطار الذى تناولته قصة « عنتر » وقصة الملك « سيف بنى ذى يزن » وكيف حارب الجن والانس حتى جمع البلاد ووحد الاقطار ونشر دين الله وكلها دون شك قصص قصد منها اظهار البطولات العربية المبالغ فى تصويرها خياليا ، وترديد أخبارها وانجازاتها لكى تقف لأجيال القادمة من أبناء العرب على ما فعله أجدادهم فى العصر الجاهلى والاسلامى ٠

ومن الملاحظ أن العرب لم ينفردوا وحدهم بهذا النوع من الأسلوب القصصى الذى نسج بخيال واسع لالهاب حماس الأجيال وحفزهم فقد قدر للاغريق فى التاريخ القديم أن ينهجوا نهجا يثير خيال الشباب والكهول ، والصغار والكبار والرجال والنساء وفئات المجتمع ككل ٠

فقد اشتهرت الالياذه والأودية للشاعر « هوميروس » اليونانى بانها قصة البطولةوالفداء عند اليونان تصف أبطالهم وتتغنى بأمجادهم وتقص علينا ألوانا من حياتهم وتاريخهم وكيف كانوا يعيشون ويحبون ويحاربون ويستشهدون فى ساحه الوغى دفاعا عن المثل العليا والشرف الرفيع فى قصة منصلة متناسقة مرتبطة بعضها الى بعض بشىء من التاريخ أوشياء من الخيال والملاحم كما هو الحال تماما فى قصة عنترة بن شداد ٠

---

(١) محمد بن عمر التونسى ٠ المصدر السابق ٠ ص ٦٠

وكما وصفت «الألياذه» البطولات عند الاغريق وصفت قصة «عنتر» «وسيف» وتغريبة «بنى هلال» لنا البطولات عند العرب فى عصر ما قبل الاسلام وبعده ٠

وكما كتبت «الألياذه» فى أوقات متلاحقة ثم ضمت بعضها الى بعض فكذلك كتبت قصة «عنتر» وقصة «أبى زيد الهلالى» والملاحم فى أوقات يصعب تحديدها حتى استقامت واستقرت على النحو الذى نعرفه اليوم ٠

وكما اختلف النقاد فى «الالياذه» وذهب بعضهم يقول أن (هوميروس) لم يكتب كل فصولها ولا جرى لسانه بجميع اناشيدها فكذلك اختلف نقاد العربية وأدباؤها فقالوا ان قصة «عنتر» كتبها أكثر من شخص واحد ، كان الخلف يزيد على السلف فصلا بعد فصل حتى استقامت واستقرت على النحو الذى نعرفة وكذلك الحال فى قصة « أبى زيد الهلالى » ٠

انها جميعا قصص البطولة والحب والغرام والغزو والكرم والجور والفداء والحقد والحسد والمكايد والحـــرب فى الصحراء الغـــربية ٠ وكل ما يجيش فى النفس البشــرية من خير ومن شر متجســد فى خيـــال تلك الملاحم حتى أصبحت قاســما مشــتركا من تقـــاليدنا العـــربية وجـزءا من تاريخنا القومى ورثناها عن آبائنا والفناها منذ طفولتنا فكم قرأنا عنها صغارا وكم استمتعنا باخبارها وأحداثها شبابا وكهولا وشيوخا لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير وكبير وصغير ٠

وملحمة « أبى زيد الهلالى » نهر متجدد وترجمة حقيقيه لآمال أمه وتعبير صادق عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، واستوعبت كل ما فى العصر الجاهلى وبداية العصر الاسلامى لحياة العرب الفدائية حيث كانت مقوماتها الرعى والتنقل الى أماكن العشب والكلأ والحشائش الخضراء كما صورت المجتمع العربى المقسم الى قبائل والتى تتباهى دائما بالشجاعة والكرم وبالنسب والحسب (٢) ٠

---

(٢) عمر ابو النصر : تغريبة بنى هلال ورحليهم الى بلاد المغرب وحروبهم مع الزناته خليفه ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٢

اذا كان لكل قبيلة شاعر يتغنى بلغتها عن شجاعة أبطالها وانسابهم فمن الطبيعى أن تكون هذه المعانى مستقاه من الأصول التاريخية لحياة القبيلة الا أن الملاحظ فى الفولكلور السواحلى وآدابه المنتشره فى شرق أفريقيا أنها قد تأثرت بملحمة « أبى زيد الهلالى » فى اطار الاهتمام القصصى الذى يبرز أعمال البطولات المستمره من الأساطير القديمة .

ولا وجـه للغرابه فى ذلك فالسواحيلية متأثره الى حد كبير باللغه العربية فالمؤرخ « رويش » وهو ضليع فى آداب السواحيلية يذكر فى كتابه تاريخ شرق افريقيا أن السواحيليه متأثرة باللغـة العـربية بمقـدار يتراوح بين $\frac{1}{4}$ ، $\frac{1}{5}$.

وكانت حروف السواحيلية تكتب بأحرف عربية الى عهد قريب حتى جاء المستعمر وأصبحت تكتب بالأحرف اللاتينية منذ عهـد قريب جـدا (٣) .

والأدب الصومالى المتأثر فى غالبه بأدب « أبى نواس » الشاعر العربى العباسى قد دخله هو **الآخر كثير** من أدب البطولات والأمجاد .

اذا فان ملحمة أبى زيد الهلالى تمثل نوعا من الأدب الشعبى الذى يروج وينتشر بين قطاعات عريضة من عامه الشعب فى شـمال وشرق أفريقيـا والتى تستريح لهذا اللون من الأدب العربى .

سيرة بنى هلال فى ضوء التراث الشعبى :

يهتم المؤرخون والباحثون فى دراسـة التراث الشعبى على اختـلاف جنسياتهم وايديولوجيتهم على أن التراث يشكل حلقة هامة من حلقات التطور التاريخى والتفكير الادبى للشعوب عامة فهو يعكس آلامهم وآمالهم وأنماط

---

(٣) Reush., History of East Africa., London. Oxford. 1960. pp 80-90

أعراقهم التى تشكل سلوكهم فى حياتهم المعيشية وفى الوقت نفسه يعبر هذا التراث عن الجانب الجمالى لثقافتهم فيجدون من أقاصيص أبطالهم مجالا خصبا لصور يجسدون فيها خيالاتهم ٠

والشيء العجيب فى سيرة بنى هلال أن أول ماتناولها بالتحليل العلمى وابراز خصائصها فى ضوء الأدب الشعبى كانت تتمثل فى أعمال المستشرق الفرنسى رينيه باسيه M. Rene Basset عام ١٨٨٥ والمستشرق الألمانى و ٠ اهلوارد عام ١٨٩٦ ومارتن هارتمان Martin Hartman والمستشرق الفرنسى الفرو ٠ بل A. Bel عام ١٩٠٣ ٠

ومهما يكن من نوعية اهتمامات هؤلاء بالتراث الشعبى لسيرة بنى هلال الا أن حسب هؤلاء أنهم نبهوا الاذهان الى وجوب الاهتمام بالدراسات التاريخية لهذه السيره فى ضوء التراث الشعبى (٤) ٠ أما المؤلفات العربية التى تناولت هذه السيره بالدراسة فنجد أغلب أعمالها جاءت فى اطار الأدب الشعبى وهو ما يتمثل فى أعمال محمد فهمى عبد اللطيف فى مؤلفه « ابو زيد الهلالى » المنشور عام ١٩٦٨٠ وعبد الرحمن قيفة فى مؤلفه من أقاصيص بنى هلال وهى دراسة تونسية منشورة عام ١٩٦٨ ثم مؤلف عمر ابو النصر بعنوان تغريبة بنى هلال ورحيلهم الى بلاد الغرب وخروبهم مع الزناتى خليفه وهى منشورة عام ١٩٧٨ ٠

قصة سيرة بنى هلال :

نستطيع ان نقسم قصة سيرة بنى هلال الى ثلاثة حلقات فى ضوء التقسيم الذى أخذ به « محمد فهمى عبد اللطيف » فى كتابه « ابو زيد الهلالى » فالحلقه الأولى تروى تاريخ ظهورهم فى شبه الجزيرة العربية حتى استيطانهم بلاد السرو والحلقة الثانية وهى تحدثنا عن رحلتهم الى بلاد نجد ، ثم الحلقة

---

(٤) عبد الحميد يونس ٠ الهلاليه فى التاريخ والأدب الشعبى ، دار المعرفه القاهرة ١٩٦٨ ص ١٢٦ ٠

الثالثة ويطلق عليها تغريبة بنى هلال وتشتمل على حروبهم ووقائعهم فى بلاد العرب ٠

الحلقة الاولى :

أما الحلقة الأولى فتبدأ بالحديث عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم ، فهى تقول أن هلال بن عمر وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه قومه واسدى الى المسلمين معاونة قوية حتى أن النبى أسكنه وادى العباس وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة والكرم ورزق بولد سماه «المنذر» ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده وحذق الفروسيه والقيام بأعمال السلب والنهب ثم تعرف الى الأمير «مهذب» وتزوج بابنته «هذبا» ولما مضى على زواجهما عشر سنواتولم يجب منها قرر الزواج بثانيه فرحلالى بلاد «السرور» «وعباده» حيث تزوج بابنه الملك الصالح « عذبا » وهنا تاتى القصه بمفاجأة قصصية غريبة فتحدثنا بأنزوجته الأولى«هذبا» انجبت «جبيرا» ولكن لم تلبث الغيرة أن دبت بين الاثنين مما أدى الى نزاع عنيف فى الأسرة انتهى بطلاق « عذبا » ورحيلها مع ابنها « جبير » الى نجد ومن ذريه « جابر » « جبير » رجالات بنى هلال وبطونهم الذين يمثلون أدوار البطولة فى القصة وتحكى عنهم حوادثها ووقائعها فجابر ولد له عامر وهشام وحازم ومن نسل هؤلاء « رزق » والد ابى زيد وسرحان والد السلطان حسن اما جبير فقد ولد رياح وحنضل والنعمان ومن ذرية رياح دياب بن غانم ٠

ثم تنتقل القصه الى الحديث عن « رزق » والد « أبوزيد » فتذكر أنه كان أميرا من أمراء العرب وأنه كان مزواجا تزوج من عشر نساء فلم ينجب من واحدة منهن الا ولدا ليس له ذراعان ولاساقان ، فتزوج بامرأه تسمى « خضراء » فرزقت منه بفتاة تدعى «شيما» ثم حملت بغلام هو «أبو زيد» ولما كانت فى شهور الحمل خرجت للتنزه مع جارتها فرأت طيرا اسود اللون انقض على سرب من الطيور الأخرى فقتل بعضها وشتت بعضها الآخر فتضرعت «خضراء» الى الله أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطيرفىقوته وشده بأسه ولو جاء

اسود اللون ، فاستجاب الله دعوتها وولدت الغلام على ما تضرعت به الى الله فلما كان اليوم السابع لميلاده أقام والده وليمه كبيرة دعا اليها أمراء العرب ثم قدم لهم الغلام فما كادوا يرون سوداء لونه حتى هالهم الأمر وطلبوا من والده أن يطلق «خضراء» لأنها جاءت بولد لا يشبهه فلابد أن تكون خانته فيه فطلقها على الرغم من حبه لها وتعلقه بولده وانتهى الأمر برحيلها هى وابنها الى الأمير «الزحلان» عدو بنى هلال فقصت عليه فاكرم وفادتها وهدأ من روعها وتعهدها وولدها بالرعاية وعهد بتربية الغلام الى مربى أولاده حتى اذا شب الغلام بدت عليه شمائل النجابة والفتوة وشدة البأس وأولع بألعاب الفروسية وركوب الخيل وابتدأ يحارب القبائل المعادية فأظهر من ضروب البسالة ما طار بذكره ثم حدث أن هاجم الهلاليون بلاد الأمير «الزحلان» فنهض اليهم «بركات» وهجم على والده وأخذه أسيرا وهم بقتله لولا أن والدته أطلعته على حقيقة الأمر وكان هذا ابتداء التعارف بين الأب والابن أما الامير «الزحلان» فقد أعجب به وزوجه بابنته « غصن البان » ومن يوم تلك الواقعة سمى « سلامه » اشارة الى سلامة القوم على يديه وكنوه « بابى زيد الهلالى » اعترافا بريادته على الفرسان فى الحرب وينسبه فى بنى هلال بعد أن تمت المعرفة بينه وبين والده ٠

وبعد أن تفرغ القصه عن الحديث على حروب الهلالية مع الأمير الزحلان وأخبار رزق وابنه « ابو زيد » ننتقل الى الحديث عن سرحان والد السلطان « حسن » فنذكر خبر تعرفه « بشما » ثم ما كان من وقوعها فى أسر الافرنج ونجاتها بحيلة لطيفة ثم تنتهى الحلقة الأولى من القصة بكلام طويل عن حروب ووقائع الهلاليين فى اليمن والهند لا يتقيد فيه خيال القصاص بمراعاة التاريخ أو الدقه فى معرفة البلدان ولكنه خيال شارد لا يطلب الا الغرائب والعجائب التى تستهوى العامة ٠

الحلقة الثانية :

وتأتى بعد ذلك الحلقة الثانية من القصة فتبدأ بالحديث عن رحلة

الهلاليين من بلاد « السرو وعباده » الى « نجد » الخضراء حيث كانت تعيش قبيلة زغبه وذريه خبير أعنى قبيله الأمير غانم وابنه دياب وتقول القصة : ان هذه الرحلة كانت من جراء القحط الماحق الذى نزل ببلاد « السرو » مما اضطر القوم الى البحث عن مكان ينتجعونه فقصدوا الى نجد ليعيشوا مع أقاربهم وكانت رحلة عنيفة اذ اصطدم الهلاليون فى طريقهم بيهود خيبر ووقعت بينهم حروب طاحنه تمت بانتصار الهلاليين ، على أن اقامتهم فى نجد لم تكن أهدأ اذ حارب الهلاليون « العقيلى جابر والهديبى » وغيرهما من الأمراء والأشداء والقبائل المجاورة مما تحدثت عنه القصه طويلا ووصفته أروع وصف وأبدعه وتذكر القصه أن السلطان «حسن» تزوج فى نجد «بنافلة» أخت دياب ابن غانم بعد أن وعده بأخته نوربارق » التى تعرف بالجازية ولكنه لم يحقق معه هذا الوعد وزوجها لشريف مكه ، وبعد أن تتحدث القصة عن بطولة الهلاليين وحروبهم مع القبائل تشير الى رحلتهم عن نجد وبهذا تنتهى الحلقة الثانية ٠

الحلقة الثالثة :

أما الحلقة الثالثة فهى التى تعرف بقصة الريادة أو تغريبة بنى هلال وهى أحفل حلقات القصة بالحروب الأهوال والغرائب والعجائب وهى مدار حديث القصاص غالبا فيما يتحدثون به الى الناس فى المجالس العامة ٠ ولا تحفل القصة فى ابتداء هذه الحلقة بما كان من نزول القوم أرض مصر وقد يمر بعضها بذلك مرورا عابرا ثم تأخذ فى الحديث عما كان من رحلة الهلاليين الى تونس الخضراء بسبب القحط الذى نزل بأرض نجد فأخذ بالابل والخيل وهدد النجوع بالجوع والهلاك ، ففكر القوم فى الرحلة الى بلاد الغرب لما سمعوه عن خيراتها الكثيرة وزروعها الندره وهنا تبدو القصة رائعه ممتعه فهى تذكر أن القوم لم يتلهفوا فى القيام بهذه الرحلة ولكنهم فكروا فيها طويلا وأمعنوا فى التدبير لنجاحها وتحقيق الغرض منها فاتفق رأيهم فى ذلك على ارسال بعثة للتجسس وارتياد الجبال فى بلاد ومعرفة ما عند أهلها من الاستعداد

للدفاع عنها وقد تألفت هذه البعثة من ثلاثة فتيان من خيرة أبناء الهلالية جاها وشبابا وجمالا وشجاعه وهم «مرعى ويحى ويونس» وعلى رأسهم «أبوزيد الهلالى» نفسه متنكرا فى زى عبد تابع لهم وخرج أبو زيد والفتيان الثلاثة لقصدهم بعد ان ودعهم العرب وعلى لأسهم «السلطان حسن» وداعا حرا يفيض بالعواطف الأبوية الصادقة وسارت معهم « شنيخا » أخت أبى زيد مسافة طويلة وهى تبذل لهم النصح بالحيطة والحذر والصبر على ما يصادفهم من الصعاب والعقبات وتبكى بكاء مرا على فراقهم حتى نهرها «أبو زيد» وأمرها بالرجوع عنهم ثم تأخذ القصة فى الحديث عن سفر هذه البعثه وكيف وقع أعضاؤها جميعا فى قبضة العدو وكيف استطاع « أبو زيد» أن يخرج بالحيلةوأن يعود الى «الهلالين» واخواتهم ويخبرهم بما كان من أمرهم والظاهر أن قصة الريباده هذه ترجع فى حقيقتها التاريخية الى ما قد مناه فى خبر مؤنس بن يحى أمير رباح وموقفه من القوم حين أرادوا مهاجمه القيروان فبسط لهم البساط وحملهم على أن يدبروا لذلك ما عندهم من الحيلة وأن يتحينوها أولا من الأطراف واستعد العرب للهجوم على الغرب وقد أعدوا لذلك الجيوش والحشود بتقدمهم امراؤهم وفرسانهم وجاءوا « بالجازية » من مكه لتكون فى الطليعة مع فتيان العرب لبث الشجاعة فى نفوسهم وقلوبهم وتطيل القصة فى خبر احضار الجازية واستخلاصها من زوجها شريف مكه بالحيلة وقد نقلنا هذا الخبر عن « ابن خلدون » فى الفصل الأول ولكن القصة تطيل فى شرحه وتفصيله تفصيلا وافيا ممتعا مما فيه من الحيل الطريفة والأشعار الظريفة .

ثم تفيض القصة فى الحديث عن رحلة الهلاليين الى بلاد الغرب ودخولهم الى افريقية وما جرى لهم من الحروب الدامية والوقائع العنيفة ونقائهم فى الطريق للخفاجى عامر والملك الغضبان وشبيب النميمى والبردويل بن راشد وفى هذا تذكر القصة أسماء ملوك وقبائل من الصعب أننردها الى حقيقتها التاريخية وكثيرا ما يظهر فيها خلط القصاص وتعيينهم للأسماء والوقائع تصيدا يبدو فيها التلفيق وعدم الدقة ، ثم تأخذ القصة فى رواية ماجرى من الحروب والوقائع

بين الهلاليين وبين «أبى سعدى الزناتى خليفه»أو«أبو سعده الزناتى الذى كان تاريخية كما يمثل شخصيه كان قائدا ووزيرا لصاحب تلمسان وقد حاربة الهلاليون بعد ماتم لهم فتح القيروان والتغلب على «المعز بنى باديس» ولكن القصة تضيف كل حروبهم فى افريقية مع المعز وغير المعز الى « الزناتى » هذا وتصوره فارسا صنديدا وبطلا عنيدا من الصعب قهوة والتغلب عليه حتى طالت الحروب بين الهلالين وبينه أمدا بعيدا وهنا تصور القصه « أبا زيد الهلالى» رجلا بارع الحيله يحتال على الزناتى بالدهاء والخيانه فوقف على خطه لقتله وضعها « سعدى ابن الزناتى » نفسه عندما كان أسيرا فى سجن ابيه ولما كان المنجمون قد أخبروا بأن الزناتى لا يقتله الا « دياب بن غانم » فقد استخدم « ابو زيد » « ديابا » لهذا الغرض واستعان بالجازية وفتيات العرب الجميلات على اثارته وبث الحميه فى نفسه وبرز « دياب » لمنازلة خصمه ولكنه وجد نفسه أمام خصم عنيد لا يقهر بسهوله ولا يمكن التغلب عليه نظرا لما كان يكبسه الزناتى من الزرد والمغافر التى تغطى جميع جسمه فأشار عليه أبو زيد بأن يطعنه فى عينه وهو يلتفت اليه عند نهاية الشوط وهذه الرواية قد استغلتها القصة من الحقيقة التاريخية عن موقعة العين

ولكن القصة تأتى هنا بسرد خرافى ، فهى تذكر أن « الزناتى » كان بن جنية ، فاذا طعن فى جسمه التأمت جراحه مع صباح اليوم التالى وعاد لمنازلة خصمه كما كان من قبل ، واذن لابد من ان يحتال ابو زيد لهذا الامر، فما أن علم بأن ديابا طعن الزناتى فى عينه حتى تنكر فى مظهر طبيب عربى وخرج ينادى فى الحى بمهنته ، فطلبوه لاسعاف الزناتى من ألمه فوضع له السم فى عينه وبهذا ضمن موته ، وهنا تتحدث القصة عن نهاية الزناتى حديثا يفيض بالأسى والألم ، فهى تروى أن الزناتى علم بفعلة أبى زيد معه ، وأن الجازية قصدته فى موته فارسا مهابا حتى أنها تلثمت لما رأته وكانت لا تتوارى من رجل مهما كان قدره .

وبموت « الزناتى » خلا للعرب ، وتم لهم الاستيلاء على تونس والتربع على تخوت الغرب السبعة ، ويعرف هذا القسم من القصة بقصة (السبع تخوت وسلطنة دياب وأبى زيد وتملك الأربع عشرة قلعة (١) ٠

---

(١) محمد فهمى عبد اللطيف ، ابوزيد الهلالى ٠ سلسلة اقرأ ٠ دار المعارف للطباعة والنشر (٤٧)

الفصل العاشر

الواقع الاجتماعى

العادات والتقاليد (*)

ليس من السهل ونحن بصدد دراسة الواقع الاجتماعى لقرية بنى هلال أن نعزل هذا الواقع عن العادات والتقاليد الراسخة بين افراده . والتى استقرت بالميراث وتقادم الزمن ، فالانسان يولد وقدره فى أكف غيره . وللعادات والتقاليد دور فى الحياة أقرب ما يكون الى دور الوراثة فى الحياة الفسيولوجية من أجل التواصل بين الأجيال المتعاقبة .

العــادات :

يعد موضوع العادات الاجتماعية من القضايا التى شهدت جدلا واسعا بين مختلف المفكرين الاجتماعيين حول تحديد مفهوم واضح ومحدد لها الى حــد أن بعضهم لم يفــرق بين manner, Usage, tradition, Custom وبعضهم يكتب عن mores, folkways كأنهما شىء واحد .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ما يتحدث عنه أحد العلماء على أنه « folkways طرق شعبية يتحدث عنه آخر على انه Customs «أعراف»، وما يسميه أحدهم Custom « عرف » يسميه آخر Mores « سنن » . على حين يطلق عليه ثالث conventiou « اتفاق » ومع ذلك يذهب البعض فى اتخاذ مصطلحات تختلف فيما بينها ولكنها فى نفس الوقت تشير الى مفاهيم العادات والعرف والتقاليد بمعنى واحد .

(*) د . السيد حنفى عوض .

ولعل ذلك الخلط ما دفع « بورنشتين » F. Borenstein الى القول « قلما تصادف فى بحوث علم الاجتماع موضوعاً تسوده الفوضى فى التعاريف واختيار المصطلحات ، كما تسود موضوع العادات الاجتماعية • وقد يكون من الانصاف أن نلتمس بعض العذر لمن يقع فى الخلط فى تعاريف المصطلحات السابقة،فكل تلك المصطلحات السابقة كما يقرر «ادوارد سابير Edward Sapir من الصعب أن تخضع خضوعا كليا للتعاريف العلمية الدقيقة والواقع أننا لو أمعنا النظر لوجدنا انها كلها تشترك فى صفة أساسية واحدة هى أنهـا تعبر عن مظاهر السلوك الجمعى المتكرر وأساليب الناس الجمعية فى التفكير والعمل وربما كانت هذه الصفة مشتركة بين تلك المصطلحات من بين أسباب الخلط وعدم الدقة فى استعمالها • وغنى عن البيان أن أنواع السلوك الجمعى نفسها مهما ميزناها بعضها عن بعض بقصد التحليل العلمى وازالة الغموض عن معانيها فهى تمثل شكلا متصلا تتداخل أجزاءه بعضها فى بعض تداخلا كبيرا وتتشابك تشابكا شديدا • »

والعادة الاجتماعية بصفة عامة كما يعرفها جلن وجلن «Edward Sapir» هى كل سلوك متكرر يكتسب اجتمعيا ، ويتعلم اجتماعياً ويمارس اجتماعيا ويتوارث اجتماعيا •

ويتلخص الفرق بين العادات الاجتماعية والعادات الفردية ، فى أن العادات الفردية أسلوب فردى وظاهرة فردية شخصية تعتبر استجابات لظروف حياتنا المباشرة (١) •

---

(١) فوزيه دياب • القيم والعادات الاجتماعية • دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ـ ص ١٠٤

Encyclopedia of the social science, Mac Millan. New york 1950. p. 658

أما العادات الاجتماعية فظاهرة اجتماعية تمثل اسلوبا اجتماعيا بمعنى أنها لا يمكن أن تتكون وتمارس الا بالحياة في المجتمع المتفاعل مع أفراده وجماعاته ، ولذلك كان من أهم الصفات المميزة للعادات الاجتماعية ما يتصل بها من جزاء اجتماعي توقعه الجماعة ازاء مخالفتها،لذلك تعد العادات الاجتماعية بحق عاملا جوهريا من أكبر وأقوى عوامل التنظيم والضبط في علاقات الأفراد، سواء في داخل المجتمع ككل كبير متماسك أو في داخل الهيئات الاجتماعية الخاصة ، فهي تسهل لهم أفعالهم وتحدد منطق الترابط والتعامل فيما بينهم ويوضح « ما يكفر وبيدج » بقولهما أنه لا يرجى للنظم السائدة والرابطة أي انتظام بمعنى الكلمة الا اذا ارتكزت واعتمدت على مركب معتمد من صنوف مختلفة من العادات وأساليب السلوك (٢) ، وهذه تستمد أصولها وتشتق وجودها من التجربة الاجتماعية للناس من تفاعلهم وتعاملهم بعضهم مع بعض في حياتهم الاجتماعية المشتركة وهي ما تمثل الطرق الشعبية التي تنشأ بطريقة واعيـــة ، وغير شـــعورية ، وبمـرور الزمن تبـدو ثابتة وأصيلة وراسخة ، على الرغم من أن أحدا لم يقصد حدوثها أو يتعمد تكوينها أو يخطط لها ، أو يعرف عنها مقدما • فهي وقائع صمدت وتبلورت واستقرت في شكل نماذج انتقلت الينا من الأجيال السالفة التي أسهمت في انشائها وتطورها •

ولما كانت العادات من صنع المجتمع فهي اذن مشتقه من العقل الجمعي الذي تعلو سلطته على سلطة الأفراد ولذلك يتحتم على الأفراد أن يطيعوها ويحترموها وكل من يحاول مخالفتها فانه يقابل بمقاومة تختلف في شدتها ودرجتها على حسب نوع المخالفة ، فالجماعة القروية يكون فيها الفرد شديد الحساسية لآراء وأفعال الآخرين فهو يبني سلوكه وتصرفاته الذاتية لا وفقا

---

(٢) ماكيفر وبيرج • المجتمع • ترجمة على احمد عيسى • مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٦١ ص ٤١ •

لاحتياجاته وبناء شخصية المفرده بل وفقا للبناء السلوكى لجماعته التى تمارس ضغطا وجدانيا وأخلاقيا لايستطيع الفرد الفكاك من تأثيره وسطوته(٣) ٠

التقاليد :

الواقع أن الفاظ تقاليد ، وتقليد ، وتقليدى أصبحت معروفة عند كثير من علماء الاجتماع وغيرهم بدلالتها على القدم ومضى الزمن ٠ واذا اتصف السلوك بأنه تقليدى يستشف من ذلك أن مزاولته دامت حقبا طويلة ٠ وأنه محاكاة لسلوك القدامى ومتوارث عنهم كذلك فان الألفاظ فى اللغة الانجليزية مثل traditional, traditions ، وجدنا أنها كما يقول « ماكس رادين » Max Radin تستعمل بمعنى قديم old وراسخ وعريق Long established فالمعروف فى العالم الغربى ، أننا اذا قلنا traditional religion أى الديانة التقليدية ، كان المقصود « المسيحية » christianity وكذلك اذا قيل traditional metaphysics اى الميتافيزقيا التقليدية كان المقصود غالبا ميتافيزيقا أفلاطون وأرسطو ٠

واذا أخذنا لفظ tradition فى معناه الاشتقاقى وجدنا أنه آتى من الفعل اللاتينى tradeer الدال على التسليم والاعطاء والذى يقابله بالانجليزية أفعال to deliver to pass on to transmit وكلها أفعال تدل على التوصيل والنقل ، وبذلك يكون معنى **traditions** أى تقاليد ماتنوقل من السلف الى الخلف ٠

ويمكن تحديد مفهوم اجرائى لتعريف التقاليد بأنها نوع من العادات التقليدية المتوارثة التى تمارس ضغطا شديدا على الانسان ولكنها فى الوقت

---

(٣) محمد طلعت عيسى ٠ النهضة الثقافية فى المجتمعات الريفيه ٠ الحلقه الدراسية لعلم الاجتماع الريفى بالقاهرة ١٩٧١ ٠ ص ٢٨٦

نفسه تنشأ من الرضا والاتفاق الجمعى بين أعضاء الجماعة وتعتمد فى فرض سلطتها على سطوه هذا الرأى الجمعى الذى يعاقب من يخرج عليها (٤) ٠ وفضلا عن ذلك فان التقاليد صفة مميزة للجماعة التى تأخذ بها ، والمقصود هنا بلفظ الجماعة أى وحدة ثقافية معينـــة ســواء أكانت كبيرة أم صغيرة فالجماعة قد تكون أمة أو طبقة ، أو طائفة أو جماعة مهنية ، أو بيئه محلية ، كمدينة أو قرية ، وقد تكون قبيلة أو أسرة ٠

والواقع أن أهمية التقاليد كعامل من العوامل القوية فى تماسك الجماعة يرجع الى أنها تجسيم لأنواع من القيم والمعتقدات القديمة المتوارثة المتأصلة فى النفوس منذ أجيال عدة ، والمنتشرة فى جو الجماعة الخاصة والزائعة بين أفرادها ٠ أى أن التقاليد بعبارة أخرى تعبر عن أسلوب من التقدير أو التقويم، يقوم على أساس من التاريخ الصادق والمتمثل فى تاريخ الأسرة والأفراد الذين تميزوا بشجاعتهم وبطولتهم أو بخدمة المصلحة العامة وغير ذلك من الصفات الجديرة بالاعجاب فى نظر الجماعة ، وأن ذلك التاريخ انما يجعل بعض الذكريات المنسوبة الى بعض الأسر أو بعض الأفراد ، والتى تتناقلها الجماعة معتزة بها خلال الأجيال هى التى تميز الجماعة وتطبعها بطابع خاص ، وتجعلها تتميز بالتفوق بين الجماعات الأخرى ٠

والتقاليد اذن هى المصدر الشفاف الذى يعكس لنـــا قيم الأســلاف ومعتقداتهم أى يعكس لنا تصوراتهم الجماعية وبناء على ذلك يكون التمسك بالتقاليد معناه استمرار لهذه التصورات الجماعية واستدرار للاعتزاز بالماضى وبقيمته ومعتقداته وأفكاره لا يمكن تفسيره الا بوجود ذاكرة اجتماعية بمعنى memorie Collective تنسى الماضى البائد (٥) وانما تذكره على الدوام ذكرا حسنا ٠ فعلى الرغم من فناء الأسلاف وزوالهم يظل أولادهم وأحفادهم يذكرون

---

(٤) فوزية دياب ٠ المصدر السابق ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ ٠

(٥) محمد ثابت الفندى ٠ الطبقات الاجتماعية ، دار الفكر العربى بالقاهرة ، ١٩٦٠ ص ١٦٥ ٠

عاداتهم ، ويذكرون كيف كانوا يعتزون بها ولذلك فهم أيضا يترسمونها على الاحتفاظ بها احتفاظا واعيا مع الاعتقاد بأن هذه التقاليد تميزهم بالتفرد فى صفات ذاتية خاصة ، تكون مدعاة التباهى بها على غيرهم من الجماعات ولذلك فهم لا يفتقدون ما يعتقدونه ، فما اعتقدوه قد نشئوا عليه وقبلوه وتشربوه والتقوا به قبل أن تكون لهم القدرة على فحصه وهذا ما يحدث بصفة عامة للتقاليد فى الجماعات المختلفة بل وفى المجتمع الواحد (٦) ولعل ذلك ما يفسر لنا شده التماسك بين أهالى «قرية بنى هلال» الذين يعيشون على ذكريات مشتركة وماضى مشترك ، وتصورات مشتركة جماعية متوارثة كل هذا من شأنه يولد بينهم شعورا بالتضامن والمصير المشترك ٠

وفى دراستنا لمجتمع القرية مجال بحثنا سنتناول أهم خصائص العادات التقليدية بها وهى ما تتعلق بالزواج وأساليب تنظيم الأسرة ٠ وشعائر دفن الموتى ٠ والسحر والتراث الشعبى وظاهرة الثأر ٠

الزواج :

الزواج فى حد ذاته يعتبر مظهرا من مظاهر النضج واعلان على اكتمال رجولة الولد واكتمال أنوثة البنت وايذانا لهما باحتلال المركز الطبيعى الذى يحتله المتزوجون ، ويعد أنسب عمر للولد لتحمل مسئولية الزواج فى قرية بنى هلال ما بين ١٦ سنة ، ١٨ سنة أما بالنسبة لسن البنت فيبدأ من ١٤ سنة تقريبا ٠ومع ذلك فظاهرة الزواج المبكر لا تتوقف على مجتمع قرية « بنى هلال » وحدها وانما هى خاصية شائعة فى أغلب المجتمع القروى بالصعيد ٠ ومع ذلك فان من اهم الأسباب على دوافع هذه الظاهرة بقرية « بنى هلال » انخفاض مستوى المعيشه وغلبة الأمية خاصة بين الاناث وقناعة الناس بابسط ضروريات الحياة والقدرية فى الرزق ٠

---

(٦) أنظر فوزيه دياب

Lundberg, Foundations of Sociology. New York Mac Millan. p. 182.

والواقع ان هناك دوافع أخرى ترتبط بالدوافع الدينية للزواج المبكر فيما يعد عاصما للشباب من الزلل وبذلك يساعد كلا من الشباب والشابة على صيانه شرفهما وشرف أهلهما هذا بالاضافة الى الدوافع الاقتصادية لهذا الزواج فى القرية فان من ضمن ما يهدف اليه هو استغلال العروس لخدمة حماها وحماتها وخدمة زوجها فى البيت والحقل •

كما أن هذا الزواج يساعد فى الوقت نفسه على انتاج الخلف الكثير وخاصة من الذكور الذين يصبحون سندا للأب فى زراعته أو الاسهام بالعمل فى زيادة دخل الأسرة •

وهناك جانب آخر يرتبط بالدافع العاطفى وهو التفاخر وتقوية العصبية والاندماج فى الأسرة التى يصاهرها الفرد •

ومع هذا فقد كان الزواج أمرا يخص صاحب السلطة الممثلة طبعا فى الأب أو العم من بعد وفاة الأب ثم الخال ، والشائع أن أغلب الزواج فى بنى هلال يتم بين الأقارب الى حد أن اغلب العائلات متشابكة فيما بينهما بروابط النسب •

والغالب فى زواج الأقارب أيضا أنه يمهد له منذ سن مبكرة بين أولاد العم أو أولاد الخال وأن يتم هذا التمهيد باتفاق الآباء معا دون علم الصغار ويعد هذا الاتفاق ميثاقا لابد أن يتم ولا رجعة فيه •

ولا يزال هناك بعض الأسر تتبع عادة حجز الطفلة للعريس منذ ولادتها باتفاق الأبوين معا • وحين يكتمل النضج لهما جنسيا يشرع الأهالى فى الاجراءات الرسمية للزواج ، ومع ذلك بدأت هذه الظاهرة تقل خاصه بين المتعلمين فى القرية الذين لا يعتمدون على مصلحة القرابة الاقتصادية وهم فى ذلك أكثر تحررا فى اختيار زيجاتهم من خارج القرية •

الخطبـــة :

تعد مرحلة الخطبة هى أولى مراحل الزواج والفترة التمهيدية التى تسبقه ـ وعادة ما تقوم أم الشاب باختيار خطيبة ابنها وهى بالطبع فتاة معروفة جيدا لها ولابنها نظرا لقرب المسافة فى البناء الاجتماعى وشبكة العلاقات الاجتماعية القوية بين أفراد القرية ثم يقوم دور الأب بعد ذلك بالاتفاق مع والد العروس على الشبكة والمهر • وغالبا ما يتحدد قراءة الفاتحة بعد صلاة الجمعة فى بيت العروس يحضره كبار السن من العائلتين •

ولقد كشفت دراستنا عن الخصائص التى يتم على ضوئها اختيار العروس فهى تقوم على دعامتين أساسيتين الأخلاق الفاضلة والأصل الطيب •

والواقع أن هذه المعانى تقترب الى حد كبير مع نتائج دراسة « فوزيه دياب » عن القيم والعادات الاجتماعية فى الريف المصرى ، فالطاعة العمياء تصبغ المرأة الريفية قيمة عالية وهى فى أمور اختيار الخطيبة أمر منطقى ينسجم كل الانسجام مع الاوضاع والنظم التى تسيطر على طريقة الحياة والمعيشة فى الريف وهو النظام السائد لأسلوب الحياة الزوجية مع الأسرة الممتدة • الآن يمكننا أن ندرك تماما لماذا يضفى الريفيون هذه القيمة الكبرى على خاصية الخطيبة فى الطاعة العمياء اذ أنه بدون هذه الصفة لا يمكن أن تعيش كزوجة ابن فى أسرة ممتدة ، تتطلب منها القيام بدور كبير متعدد العلاقات نحو أفرادها المختلفين فزوجة الابن لا تخدم زوجها وحده بل عليها أن تخدم أيضا والديه ، وأخوته المتزوجين منهم وغير المتزوجين أى كل من يقيم بالدار •

أما الأصل الطيب فيعد من الخصائص المطلوبة فى مرحلة الاختيار فاذا عرفنا أن للعصبية قيمة كبرى عند « بنى هلال » أدركنا لماذا يتمسكون بالبحث عن طيب الأصل فى الخطبة فأهل القرية يجدون الأمان والاطمئنان فى التمسك بالعصبية •

وفى حالة المصاهرة من خارج النطاق الأسرى بالقرية فان اهم المعايير التى يقوم عليها الاختيار أن تكون العروس من بين عائلة موضع افتخار ولا تقل عن مكانة عائلة العريس بالقرية ، ولهذا تراعى الأسرة دائما عند النسب سواء من داخل القرية أو من خارجها أن تصاهر أسرة فى مثل مركزها الاجتماعى ومكانتها الاجتماعية . وبهذا يكون الزواج متكافئا من الناحية الاجتماعية .

عقـــد القـــران :

ان أنسب الأوقات فى عقد القران بالقرية وتقديم المهر دائما ما يكون فى فصل الخريف بعد جمع محصول القطن أو فى فصل الربيع بعد حصاد محصول القمح .

وقد جرت العادة أن يتم عقد القران فى يوم الخميس أو يوم الأحد ويعتقد الناس أن الليلتين قد اختصا دون بقية أيام الأسبوع بالبركة .

وفى ليله عقد القران تعد المقاعد فى أقرب مكان - ويطلق عليه «فسحة» لبيت العروس وترص الدكك ويأتى بمنشدين يقدمون التواشيح الدينية ثم بعد ذلك يأتى دور الطبل البلدى والمزمار ويبدأ الشباب فى استعراض رقصات التحطيب أما شاعر الربابة فيعد اهم وأقوى وسيلة لجذب المستمعين الذى يمتد سماعهم له حتى منتصف الليل .

عقـــد القـــران :

ليلة الحنة هى الليلة التى تسبق مباشرة يوم الزفاف وهى تعد ليلة حاسمة بالنسبة لكل عروس لأنها تكون بالنسبة لمنزل أبيها آخر ليلة تقضيها بين أسرتها .

ومن الأغانى التى تعبر عن توديع العروس لبيت أبيها واستقبالها لبيت عريسها تضمنها هذه الكلمات :

ياعروسة بيتى فى بيت ابوكى الليلة ... دا بيت ابوكى مندره بجنينة وبيت عريسك الدهب بالكيلة ..

ونحن لو تأملنا معانى هذه الأغنية لوجدنا انها بمثابة اثارة لافكار اتجاه العروس نحو بيت الزوجية . ولذلك تدعو اسرة العروس الفتيات من الأقارب والجيران لشرب الشربات ومشاركة العروس فرحتها بليله الحنه كما يشاركها أيضا أقارب العريس وفى هذه الليلة تقوم الماشطة - المراة المتخصصة فى تزيين العروس من جميع النواحى - بتخضيب أيدى العروس وقدميها بالحناء وفى تلك اللحظات تنطلق زغاريد النساء وتبدأ الأغانى على النحو التالى :

حنينى يــامــا حنينى	وهاتى الحبايب وزفينى
حنى ايـديـا ورجاليـا	حنى حواجب عينيـا
وزيـدى الكحلـة شوية	دا حبيبى صابح ملاقينى

ومع هذه الأغانى المعبرة عن فرحة الجميع بهذه الامسية لا يفوتهم معانى الارتباط بالعصبية وهو ما تعكسه هذه الأغنية :

ياليلة الحنة ياليلة عيدك	خضرا ياحنة والندا يرويكى
خدك ابن عمك ما يفرط فيكى	أما الغريب فى السكة يرميكى

وفى أغنيه أخرى تتضمن هذه المعانى :

وعـرفت تنقى يأبو عيون دبـلانه خت الأصيلـة اللى اعمامهـا يامـا

وعـرفت تنقى يـا أبو عيون عسلية خت الاصيلة اللى خلانها ميه (مائه)

وعندما تنتهى الماشطة من تخضيب العروس ، تبدأ الحاضرات فى اعطائها النقوط اكراما للعروس ومجاملة لها ولأهلها ، والمفروض أن تجلس أم العروس وأختها فى يقظة تامة حتى تسجل فى ذاكرتها كل من أسهمت فى النقوط لأنها مسأله واجبه لابد أن ترد لأصحابها فى مثل هذه المناسبات

أما بالنسبة لاحتفال العريس بليلة الحناء فيقوم الأصدقاء حوله بالاغانى وتوزيع السجاير وشرب الجوزة ـ وبعد صلاة العشاء يدخل حلاق القرية ومعه صينية الحناء ويبدأ فى تخضيب كفى العريس وقدميه بالحناء وكذلك كل من يرغب أصدقائه أما بالنسبة للمتعلمين فيكتفون بتخضيب أصابعهم وبعد ان يتم اجراء حناء العريس يدور الحلاق بالصينية على المدعوين لجمع النقوط وهنا يبدأ أحد أفراد أسرة العريس فى تسجيل أسماء دافعى النقوط والمبالغ المقدمة منهم ٠

الزفاف :

يعتبر يوم الزفاف أو يوم الدخلة اهم يوم بالنسبة للعروسين اذ هو بداية لحياة المسئولية والواجبات ٠

وقد جرت العادة فى هذا اليوم أن تقوم الماشطة بتزيين العروس وابراز مفاتنها وتبدأ الأغانى التى تعبر عن جمال العروس بالمطلع التالى :

شيلى ايديكى وحطيهـــــا	والبيضة المخنية قصتها صفوف
صفوف رقبتها دهب مرصوص	وتعـالى ياعريسنا طل وشوف

دى عروستك شلبيه

ومن الأمور المألوفة أن تذهب أم العريس تصحب بناتها وأقاربها الى بيت العروس لتشارك موكب الزفاف ، وفى بيت العروس تقوم شقيقة العريس أو احدى أقاربه بتقديم أغنية يشارك فيها الجميع من النساء بهذه المعانى :

قمر ياقمر يامرات اخويا

يا ملبسانى فستانك	يمقلعـانى فســـتانك
على العموم أنا خدامتك	يامـــــرات اخـويـا
يا ملبســانى بدلتـك	يامـــــرات اخـويـا
يا مقلعانى بدلتـــــك	يملبسانى بدلتــــــك
على العموم انا عمتك	يا مـــــرات اخـويـا

وتخرج العروس من بيت أبيها تمطتى حصانا أبيض وحولها النساء من القريبات والجيران وخلفهن بعض الرجال متجهة الى مكان الاحتفال فى زفة يشارك الجميع فى أغانيها منها ما يقول :

وادوا الجميلـة للجميل ياعينى	هيه جميلـة وهو كامل الزين
طالعــة من بيـت ابوهــا	رايحــة بيــت الجيــزان
طالعــة من بيـت ابوهــا	عاليــة وليهــا مقــام
اســقوها اللبن يانينــا	اسقوهــــا اللبــن

اللــه اللــه

والواضح من هذه الأغنية انها تحمل أكثر من معنى فهى تؤكد حب الجيران ومشاركتهم فرحة العروس كما تؤكد أيضا تأكيد قيمة النسب المرتبط بمكانه الأب وفى نفس الوقت فان مطلب شـرب اللبن للعـروس يعنى التمنى لها بالخير اما ذكر الله والعين فى مضمون الأغنية فانهما يعنيان الحيطة من الحسد من عيون بعض المدعويين والمدعوات ٠

أما بالنسبة لاحتفال العريس ، فمن المتبع أن يذهب الى بيت احـد أصدقائه لكى يستحم عنده ويقوم حلاق القرية بالاشراف على كل زينته ، بعد ذلك يخرج فى صحبة أصدقائه الى المسجد الخاص بعائلته لصلاة فريضة العشاء وبعد الصلاة تبدأ زفة العريس يتقدمها المنشدون ولاعبوا الخطيب يستعرضون براعتهم فيها على أنغام المزامير ٠

ولقد جرت العادة أن يحيى حفل الزفاف بعض المنشدين للقصائد الدينية أو منشد الربابة كما أصبح من المألوف الآن استئجار الراقصات لاحياء الأفراح٠

وقبل الانتهاء من مهرجان الزفاف يصطحب العريس عروسه الى سكنه وبهذه المناسبة يتقدم شقيق العروس أو خالها أو عمها يحملها الى داخل البيت والفكرة من وراء هذه العادة هى أن حمل العروس يجنبها تخطية عتبة البيت مخافه وضع سحر اسفل هذه العتبة فتنجو من أثره ٠

وتعد هذه الظاهرة من الأمور السائدة ليست فى قرى مصر فحسب بل شيوعها قديما كما هو حديثا فى بلاد أخرى ويذكر « فريزر » أن عادة حمل العروس عبر مداخل البيوت كانت شائعة فى مراكش وفلسطين وفى الصين وفى روسيا وفى جاوة وسيرليوم وبين الشعوب الأوربية حتى من الهند الى اسكتلاندا (٧) ٠

ومن الأمور الطبيعية فى قرية «بنى هلال» دخول العروس الى بيت الزوجية بقدمها اليمنى ووقوف الحماة فى مدخل البيت على كرسيين لتمر العروس من تحت قدميها وذلك يعنى أنها بهذه الطقوس قد جعلت العروس تحت طاعتها بعد ذلك تقوم الحماة بتقديم كوب لبن للعروس لترشف منه بعد ذلك تقوم الحماة بتخضيب الكف الأيمن القدم اليمنى للعروس بالمتبقى من اللبن اعتقادا أن ذلك يجعل من دخول بيت الزوجية خيرا وبركة ٠

وبعد هذه الطقوس يدخل العريس غرفته مع عروسه اما منفردا معها أو معه الماشطة لتساعده على ازالة بكارة عروسه

ومن العادات الشائعة المعروفه فى ليلة الزفاف عادة كشف الوجه وفيها يقوم العريس بتقديم مبلغا من المال نقطة للعروس قبل عملية الممارسة الجنسية وفى لحظة انفراد العروسين يبدأ شباب القرية بصيحات التهليل والأغانى واطلاق الأعيرة النارية ٠

بعد ذلك تخرج الما شطة من حجرة العروسين وتقوم بتسليم أم العروس منديل عليه آثار دماء غشاء البكارة وأحيانا ما يقدمه العريس بنفسه ٠ فيقوم أهل العروس باشهاره أمام المدعويين بين طلقات الأعيرة النارية ٠ ويخرج العريس وحده ليستكمل الاحتفال مع أصدقائه ٠

---

(٧) فوزى العنتيلى ٠ بين الفولكلور والثقافة الشعبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ، ١٩٧٨ ٠ص ١٣٢ ٠

القدوسيه :

تحرص عائلة الزوجة أن تقدم فى ليلة الزفاف وجبه للعروسين تحتوى على لحوم وحمام يطلقون على هذه ألوجبة انقدوسية وفى قرى الوجه البحرى يطلق على هذه الوجبة حلة الاتفاق •

تنظيم الأسـرة :

من الأفكار المتعلقة بين الرجال والنساء فى القرية الاهتمام بانجاب الذكور الذين يمثلون مكانة كبيرة فى مستقبل الاسرة كما أن المرأة تستمد قيمتها انجابهم بما لا يـدع للرجـل أن يتزوج من أخري •

والولد بالنسبة لأسرته يعد تأكيدا للعصبية واستمرارها ولذلك فانهم يطلقون عليه فى مولده باسم العريس ويقام له أمسيه دينية يشارك فيها أهل القرية •

أما مولد البنت فلا يستقبل بأى احتفال يذكر ويطلقون عليها «المطوشة» على أساس أنها تأتى من نصيب رجل آخر يأخذها الى بيت أسرته •

والواضح من دراستنا أن متوسط عدد الأطفال فى الأسرة قد وصلت فى القرية الى حوالى ٦و٧ من بين عينه ممثلة لعدد ١١٨ أسرة وذلك يعنى أن الرغبة المؤكده والتطلع المستمر فى زيادة رصيد الأسر من بين الأولاد الذكور

ولعل ما لفت نظرنا الى ذلك تلك القصة المتداولة ويتندر بها أهل القريةعن أحدهم الذى انجبت له زوجته خمس بنات فتزوج من أخرى بغية الولد فانجبت له زوجته الثانية ثلاث بنات ومازال يبحث عن امرأة ثالثة من أجل ذرية من الذكور •

وبالرغم من وجود مركز لتنظيمالأسرة يتبع الوحدة الصحيةبالقرية الا أن فاعليته تكاد تكون منعدمة فالمرأة فى قرية « بنى هلال » لا تستطيع أن تمارس تنظيم الانجاب الا بموافقة زوجها وبعد أن تكون قد حققت له الهدف من انجاب

الذكور • الا أن ملاحظتنا لسجلات مركز تنظيم الأسرة تؤكد ضعف فاعليته بالاضافه الى شواهدنا من عدد المترددات عليه اللاتى لم يزدن عن واحدة فى الأسبوع تقريبا • ويؤكد أيضا العاملون فى هذا المركز على أن من اهم العوامل التى تسهم فى ضعف فاعليته دور رجال الدين الذين يقودون حمله مضادة بتحريم هذا الاتجاه والأمر الثانى دور «القابلات» اللاتى تجاوز عددهن عشر نساء ويقمن بدور طبيعى بالاتصال بالأسر ويلعبن أخطر الأدوار فى اضعاف فكره تنظيم الاسرة ، لأن نجاحه يعنى التقليل من اهميتهن واغلاق أحد مصادر الرزق بالنسبه لهن •

العادات المرتبطة بشعائر الوفاة :

من المعتقدات المنتشره فى قرية بنى هلال أن عائلة « الشرفا » الشرقيين ينتسبون الى الامام الحسن بن على رضى الله ،وأن وفاة أحدهم لابد أن تصحبه مظاهر الكرامات فعندما يموت أحدهم وتنتهى شعائر صلاة الجنازة بحمل نعش المتوفى به فى شوارع القريه ويعتقد البعض أنه لا يمكن اتمام شعائر الدين الا بعد أن يأذن المتوفى لمشيعيه بدفنه•وفى ضوء هذه الأفكار يظل الناس يحملون نعش الميت يوما كاملا الى أن يأتى المساء فيقفوا بالنعش أمام أحد بيوت الأسر •• ويدخلونه فيه ليبيت للصباح وهم بذلك يتصورون أنهم يلبون رغبة الميت • والأسرة المضيفة تعتبر ذلك تبركا ، وفى صباح اليوم التالى يبدأ حمل النعش مرة ثانية وقد يستمر الحال هكذا الى فتره ثلاثة ايام حتى يأتى الأمر من الميت بدفنه وذلك بتوجيه مشيعية نحو المقابر بدفنه •

أما باقى العائلات فيدفن المتوفى منهم طبيعيا وتتقبل الأسرة عزاء الرجل من خمسة أيام الى سبعة أيام وفى كل الحالات يصحب فى المآتم مظاهر الاسراف والتباهى بين عائلات القرية وأمام النجوع المجاورة ويبالغون فى مظاهر البذخ ولا يقصدون من وراء ذلك سوى تمايز بعضهم عن بعض •

ومن الشواهد التى تصحب عزاء النساء تلك الكلمات التى يرددونها فتثير بينهن النحيب وهذه الكلمات تختلف باختلاف المتوفى ففى حالة وفاة الزوج تقال كلمات الرثاء التاليه •

قوم واتعـــدل على حيـــلك يا اللى التراب عمى عينـــك
شد حيـــلك واتعـدل وحديك ما طقيتـك وقعـت تحتيـــك

* * *

صوتك معايا صوتك على السلوم (السلالم) حسك معايا لما اقوم
صوتك معايا صوتك على السلوم (السلالم) حسك معايا لما اقوم
اما فى حالة وفاة الزوجه فيقال :

والله يا ميتين ما اجيب لكم سيره ابكى على الحيين واللا على الحيره
والله ياميتين ما اجيب لكم سـؤال ابكى على الحيين واللا على الى سار

* * *

خـايف عليـــكى ياوليتى تـــدلى وينزل عليـــكى الســـيل وتتبسلى
ولما انت عارفه انك تعوزى رجـــال ليـــه تقفـــلى البـــاب بالقفـــال ٠

الســـحر :

من مظاهر المعتقدات بين اهالى القرية أن من بعض حساد العريس او حساد العروس ما يستطيع أن يفسد عليهما حياتهما الزوجية بربط العريس ليلة زفافه٠والربط هنا يعنى اخفاق العريس على الممارسة الجنسية وهذا يعنى تسويفه لعملية ازاله بكارة العروس مما يصيب أهلها بالقلق أو وضع العريس فى موقف حرج يشير الى ضعفه الجنسى ٠

وعندما يفشل العريس فى الاتصال الجنسى يسعى الى شخص معروف بالقرية يختص بالربط فيدفع له المطلوب وهو ما يتراوح بين جنيهان وخمسة جنيهات حسب قدرة العريس ويقوم هذا الشخص باعداد بيضتين للأكل يكتب عليهما بعض التعاويذ ويطلب من العريس ابتلاعها ليعود الى طبيعته ٠

ويحاول بعض الشباب ادراك هذا الموقف قبل الاحتفال بزفافه فيدفع المطلوب فى حدود المبالغ السابقة ليتحاشى المشاكل مقدما ٠

ويعتقد بعض أهالى القرية فى مقدرة هذا الشخص على معرفة المجهول خاصة فى حالات السرقة وبعد أن يدفع القاصد مبلغا يتراوح ما بين خمسة وعشرين قرشا أو خمسين قرشا يبدأ فتح الفنجان بقراءة بعض الكلمات ثم يستعين بطفل فى حدود عمر خمس سنوات ويطلب منه أن يقص مشاهداته فى الفنجان ٠

وبجانب هذه المعتقدات السحرية يتولى أحد شيوخ القرية كتابة الأحجبة بقصد حماية الأطفال من الحسد ٠ وهذه الأحجبة عبارة عن قصاصة من الورق تحتوى على « سورة الفلق » وبعض الأدعيه ثم تطوى على هيئة مثلث وهذه الاحجبة يقدمها الشيخ لطالبيها بدون مقابل ولقد كشف لقاءنا مع هذا « الشيخ » عن حقيقة معتقدات الذين يترددون عليه طلبا للأحجبة ، وكان الواضح من اجابته أن معظم هؤلاء من النساء اللاتى يبتغين اما وقاية أو علاج أطفالهن من الحسد أو من آثاره اذا ما ظهر عليهم بوادر مرضية فى شكل صراخ مستمر أو هزال شديد ٠

الا أن المثير حقا تلك الأحجبة التى يطلبها الرجال والنساء للحيوانات وقاية لها من الحسد أو علاجا لها من قلة در اللبن ، ولعل مظاهر ذلك كانت واضحة فى خلال ملاحظتنا للاحجبة المعلقة على رؤوس الأبقار والجاموس ٠

والملاحظ أن الالتجاء الى السحر للأعمال والتحويطات التى تمارس فى هذه القرية نجد أن هذه الممارسة تختلط بين السحر والدين وحسب ما تقول فوزية دياب فى دراستها عن القيم والعادات الاجتماعية « أن الدين عند الريفين من الأمور الجوهرية والدوافع الأساسية ذات القيمة العليا فى أعمالهم وفى حياتهم بصفة عامة وأى شىء يقترن به ويصطبغ بصبغته يكتسب قيمة كبيرة وقدسية قوية ، ويصبح ذا تأثير فعال نافذ فى النفوس وقد استغل المشعوذون والدجالون هذه الحقيقة فدرجوا على تلوين أعمالهم السحرية باللون الدينى ومزجها مزجا بالعقائد الدينية ولذلك لا نجد حجابا او عملا او سحرا يخلو من الآيات القرآنية ولذلك أيضا نجد أن هذه الأعمال السحرية وتلك

الأحجة والتحويطات بما احتوت عليه من كلام الله تؤدى وظيفه هامة فى العمل على راحة الشخص النفسية والتغلب على عجزه واخفاقه بما توفره له من آمال عاجلة أو آجلة يوهم بتحقيقها ويوحى اليه بأنها لا محالة واقعة .

ويمكننا أن نستخلص من كل هذا أنه على الرغم من شدة الشعور الدينى عند القرويين وقوة ايمانهم بالعقائد الدينية فأن كثيرا منهم مازال ضعيف الوعى بحقيقة تعاليم الدين وكيفية تطبيقه عليهم فى الحياة الواقعية اليومية) .

الطب الشعبى :

مازال حلاق القرية يمارس نشاطه الطبى بين أهلها فهو الذى يقوم بدور ختان الأولاد واجراء عملية الحجم لعلاج ضغط الدم (عملية الحجم تعنى قص شعر منتصف الرأس وتشريح جزء منها ثم وضع كوب زجاجى به شريط صغير من القماش موقد على مكان التشريح) .. أما فى علاج أمراض العيون فيقوم بعملية التشريط على جانبى جبهتى الرأس أما ختان البنات فتقوم به القابلات الغير رسميات .

الوصفات الشعبية :

أما علاج الأمراض التى تقوم على الوصفات الشعبية فمازال أغلب الناس يمارسونها على النحو التالى :

ورق الخروع للدمامل . وورق الجوافة للكحة . وورق النعناع للمغص ، وخلف البر للكلى ، الشعير للبلهارسيا . الملوخية مع البصل والملح لشفاء الحمى عسل النحل وسمن البقر لعلاج الربو . الحنضل لنزلات البرد . الملح والليمون فى الأذن لضربة الشمس . اليانسون للحد من الاسهال . البصلة بعد شيها لشفاء الجروح من الصديد . الملابس الحمراء للعلاج من الحصبة .

شاعر الربابة :

تعد اللحظات التى يتجمع فيها أهالى القرية فى المناسبات المختلفة حول

شاعر الربابة من أمتع الفقرات التى يعيشون فيها بكل مشاعرهم وخاصة حينما يتناول قصة « ابو زيد الهلالى » التى يفتخرون بها لأن فيها تاريخهم الذى يستمدون منه مكانتهم من بين كل القرى المجاورة ٠

ويذهب كلوت بك فى كتابه « لمحة عامة الى مصر » فى وصف الآله الموسيقية التى كان الشعراء يوقعون عليها انغامهم واشعارهم اثناء رواية « أبو زيد الهلالى » فى عصر محمد على بقوله أنها آلة موسيقية ذات وتر واحد وهى جديرة بالذكر اذ تخرج منها انغام شجية يخيل لسامعها انها أصوات بشرية وهذه الآلة هى المعروفة بالربابة ولايزال استعمالها ذائعا فى مصر الى هذا العهد ٠ وفى قرى الصعيد لا يفضلون عليها آلة موسيقية أخرى ولا يطربون لشىء مثل ما يطربون لصوتها الحماسى فيقيمون عليها أغانيهم ورقصاتهم (٨)٠

وقصة « بنى هلال » أو قصة « أبو زيد الهلالى » كما هو شائع فى التعبير حديث المجتمع المصرى منذ ثمانية قرون مضت وظل شاعر الربابة يحدث بها الناس من العهد الفاطمى الى اليوم فكان المجالس وبهجة المحافل ومجلس السرور ٠

وبالرغم من أن شاعر الربابة كانت أقاصيصه تشبع اهل القرية فى تجسيد تاريخهم واضافة البطولات على أجدادهم فانه بقدر ما ترك جانبا ايجابيا فى احياء الجانب الترويحى من سمر وطرب فى نفوسهم الا أنه ترك فيهم باعث الغيرة والنخوة والعصبية ٠ فقد ظلت قصة « الهلالية » درسا يلقى على الناس فى الاعتداد بالنفس والثبات على الشجاعة وحماية الجـــار والمستنجد والدفاع عن العرض والحريم والتعصب للأهل والعشيرة والمبادرة الى مواجهة الخصم والأنفة من الخضوع والخنوع وغير ذلك من المعانى والصفات التى ترددها القصة كثيرا وتصورها للناس فى صور مختلفة مقبولة

---

(٨) محمد فهمى عبد اللطيف ٠ المصدر السابق ، ص ، ١١١ ، ١١٦ ٠

تهفو اليها النفوس والقلوب وقد يكون فى هذا ما يجر الى الشر ، ويبلغ بالنفوس الفتية الى الطيش والرعونة والشطط فى التصدى والانتقام مما قد لا تقره القوانين الوضوعية وان كانت تقضى به التقاليد الموروثة ٠

على أن هناك من أثر هذه القصص فى الخير مالا يصح ان يجحد أو ينكر ، فمن ذلك الحض على البذل والعطاء وسماحة النفس واكرام الضيف واغاثة الملهوف ومواجهة الشدائد والصبر على الجهد ، الى آخر ما نجده شائعا فى القصة ونجد العامة يحفظون منها الحكم والأمثال ويرددون منها الشواهد مما جاء على لسان أبطال القصة (٩) ٠

الأغنية الشعبية :

من بين التعريفات العديدة للأغنية الشعبية يمكن أن نقول أن ابسط تعريف لها أنها قصيدة غنائية ملحنة مجهولة النشاه بمعنى أنها نشأت بين العامة من الناس فى أزمنة ماضية وبقيت متداولة أزمانا طويلة ٠

وبهذا تتميز الأغنية الشعبية أو الاغنية الفولكلورية The Folk-Song عن الأغنية الدارجة The Popular-Song هى ذات أصل أدبى خالص (١٠) ٠

ولعلنا نجد دائما أن أقدم أنواع الأغانى الشعبية دون ريب هى أغانى الحب ومن هذه النماذج نتناول بعض الأغانى التى يغنى معظمها الفتية والفتيات :

خدنى فى ايدك بقى	فلاحة وواخدة على الشقا
انا أروح اسيوط	وآجى من أسيوط
لابسة الزعبوط	واكتب كتابى عليك بقى
أروح طنطا وأجى من طنطا	ماسكة الشنطة

---

(٩) نفس المرجع السابق ٠ ص ، ١١٦ ٠

(١٠) فوزى العنتيلى ٠ المصدر السابق ، ص ، ٢٤٨

وأكتب كتابى عليك بقـــــا

أروح جرجا وأجى من جرجـــا لابســـة اللبـــده

واكتب كتـــابى عليك بقـــا

***

الملح فى الميه (الماء) ياناس أنا دبت دوب

الملح فى الميه جسر الحكومة أشتكى من مشى رجليه

لاكتب جواب من ملوى واكلفه الميه (مائة جنيه)

وادعى بحرقة على اللى كرهوه فيا

الملح فى الفنجان ياناس أنادبت دوب

جسر الحكومة اشتكى من رنة الخلخال

لاكتب كتابى من ملوى واكلفه بريال ، وادعى بحرقة على اللى كرهوه فى الحال

***

ابقى تعـــالى ياوله ابقـــى تعالى قمـــرا وبيتنــــا على الخـــلا

ابقـــى تعـــالى فى بيت عمـــى وافتـــح لك الراديـو يغـــنى

واديـــك نايبى ونايب امـــــى

ابقـــى تعـــالى فى بيت خـــالى وافتحــــلك الـراديـو يلالـــنى

واديـلك نايبـــى يـاغالـــــى

وابقـــى تعـــالى فى بيت سيدى وافتحـــلك الـراديـو بايـــدى

وادى لك نأيبــــــى ياحبيبـــى ابقـــى تعـــالى

***

على الحلوين سيبونى وانا ادور

ماشـــى ورايا ماشـــى ورايا بده يهزر وبايا (معى)

امشـــى ياولـــه   دا احنا ولايا
على الحـــلوين ســـيبونى وأنا أدور
ماشـــــى ورايـــا رش البرســــيم   رمــــــى عليــــا ورقــة بخمسين
لا أبن عمى ٠٠٠٠ ولا أعرفه مين ٠ ؟

* * *

داس على رجلى بـدار عبيد وتقاوى
داس على رجلى باع الجاموسة وبنتها ولا طيب رجلى
حط المنـــديل على عيونه وقعد يبكى نزلت دمـوع المحبــة طيبت رجلى

* * *

شكنى مسمار الجزمة فى المقعد وانا بامشى

يابت ابوكى على البـــاب	ياباى مقــــدرش امشـــــى
ويابت اخـــوكى على الباب	ياخـويا مقدرش امشـــــى
يابت عريســـك على البـــاب	يانى ٠٠ اتعكز وانا امشى

* * *

لمـــا عـــــلانى ما عـــــلا أميـــــة   حكم الشويش اليوم ماشى عليـــه
وازاى تضربنى وأنا اسـمى أسـما   وتسمع الجيران ضــــربة الجـزمة
ياريحين الغيط قولوا لحمية والد الزوج   احمد ضرب ست البنـــات روحيـــه
وازاى تضـــربنى وأنا اسـمى هانم   حطا لك الشـــمعه على الســـلالم
يـــاريحين الغيـــط قـولـوا لحميـــه   أحمد ضـــرب ست البنـــات روحيـــه

الأمثـــــــال :

المثل فيما نعرفه هو خلاصة تجربة من التجارب يعبر به الانسان عن تلك التجربة وما أفاد منها وما أستقر فى نفسه من حكم عليها والتجارب يتعرض لها الناس كافة يستوى فى ذلك عالمهم وجاهلهم ونتيجة لتلك المشاركة

الواسعة فى التجارب تختلف الأحكام أو تختلف الكلمات المعبرة عن تلك التجارب فالحكم على التجربة لا شك يتأثر تأثيرا خاصا بالحاكم عليها ، فما تثيره التجربة فى نفس انسان يختلف طبيعيا عما تثيره فى نفس انسان آخر ثم أن صاحب التجربة الذى هو بصدد الحكم عليها يختلف قدرة وأراء أو شعورا واحساسا ٠

وما من شك فى أن احكاما كثيرة صدرت عن اناس كثيرين كانت لهم تجارب كثيرة ولكن هـذه الأحكام منهـا ما أن يؤثر ومنها ما لا يبلغ أن يؤثر فكانت ثمة أحكام مأثورة لها قوتها فى الدلالة ولها قوتها فى الشمول ولها عمقها ولها أثرها فى النفوس (١١) ٠

وهذه الأحكام التى توافرت لها هذه الصفات وغيرها أقبل الناس عليها حفظا وأقبلوا عليها تمثلا بها وهى التى أصبحت ما نسميها الأمثال ٠

ومن الأمثال المألوفة فى القـرية موضوع دراستنا الحث على الترغيب من زواج الأقارب والواضح انه يتم بينهم وفق تدرج معين بمعنى أنه يفضل فى المكان الأول الزواج من بنات العمومة ولهم فى التشجيع على هذا الزواج المثل القائل :

بنت عمك تحمل همك وستر وغطا عليك ٠ وهناك مثل يقول

آخد ابن عمى واتغطى بكمى

ويلى الزواج من ابناء العمومة فى الأفضلية الزواج من أولاد الخئولة كما يتضح من المثل التالى :

بنت خالك من دمك ٠٠ تعيش معاك على الحلوة والمرة ٠

وعلى النقيض من ذلك تأتى أمثلة أخرى تحذر من مصاهرة الأقارب تلافيا للمشاكل ومنهـا ما يقول :

---

(١١) محمد قنديل البقلى ٠ الامثال الشعبية ، دار المعارف ٠ ١٩٧٨ ص ٧،٨٠

خذ من الزرايب ولا تاخذ من القرايب

ان كان لك قريب لاتناسبه ولا تشاركه

أما بالنسبة لموقف العائلات من زواج المطلقة او المتوفى زوجها فأن بعض الأمثال تعكس عدم الرغبة فيهن على النحو التالى :

ما تاخذ اللى وراها ظو (طفل) ولا اللى قدامها بو (بقره) وهذا المثل يعنى رفض المطلقه بما تحمله من مشاكل مرتبطه بابنائها وحتى التى توافر لها جانب الثراء ٠

ومن الامثال الدافعة على عمل الخير :

ارمى رغيفك يعوم

وهـذا يعنى أن الخير لابد من أن تظهر آثار الطيبة مع الزمن ٠

وفى مواقف احترام الكبير تقول الأمثال :

خد كلام الكبير حلق فى ودنك

واللى ملهوش كبير يشترى كبير ٠

وهذه الأمثال السابقة تؤكد على وجوب احترام كبار السن والرجوع اليهم للاسترشاد بتوجيهاتهم ، فكبار السن عادة هم رؤساء العائلة الذين يتعين أن يخضع لهم بقيه أفرادها ويدينون لهم بالطاعة على مستوى القرية كلهـا يعد رؤساء العائلات فهم أصحاب القرار فى المجالس العرفيه والمناسبات العامة٠

وفى مجال الخصومات والثأر نجد الأمثلة التى تنظم العلاقات بين الأفراد والعائلات فى هذا المجال على النحو التالى :

- أنا واخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب
- لو أزعل أنا وعمك ما تكلمش أولاد عمك
- المعركة بدنات والدم بيوت
- احنا منعملش نطنا فخار

وذلك يعنى أن الأولاد لابد وأن يتخذوا اتجاهات الآباء فى خصوماتهم حتى ولو كان ذلك لأقرب الناس اليهم ، كما يرتبط أيضا المثل الاخير بآداب الخصومة فالمقصود منه أن الانتقام يجب أن يكون بين الأفراد وليس فى اتلاف الملكيات الخاصة بهم ٠

الترويح فى وقت الفراغ :

مازالت لعبة التحطيب تمثل الطابع المميز لاستعراض الفتوة فى قرى الصعيد والمدهش حقا أن « بنى هلال » يعتبرون أنهم ابطال هذه اللعبة خاصة وأن الفائز الأول فى مسابقة لعبة التحطيب على مستوى الجمهورية جاء واحد من قريتهم ٠

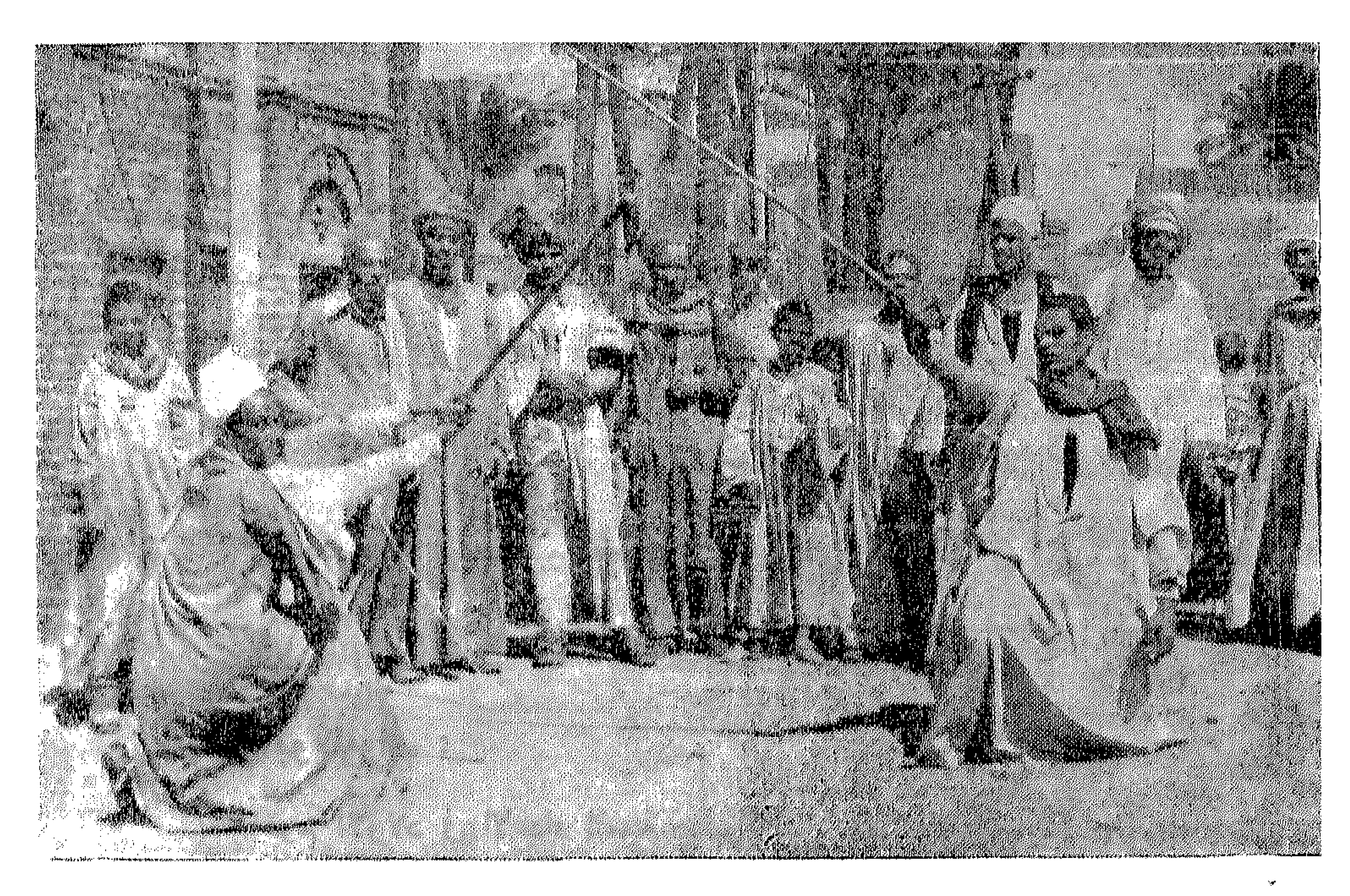
وتأخذ لعبة التحطيب اهميتها فى عروض الشباب فى المناسبات المرتبط بموالد أهل الله واحتفالات الزواج والمواليد وتوديع واستقبال الحجاج ٠

لعبة « أبو العوا » :

يقوم الأولاد فى الأعداد للعبة « أبو العوا » بتشكيل فريقين يمسك كل واحد من الفريق بجريدة نخل ويقوم أحدهم بضرب قطعة صغيرة من عصا موضوعه على حفرة بالأرض ٠ ويستقبل الفريق الثانى هذه العصا بضربة قوية من واحد منهم لمسافة بعيدة وتحسب النقط بين الفريقين ببعد المسافات ٠

لعبـــة الجون :

تتشابه لعبة الجون الى حد كبير مع لعبة كرة القدم فى العدد وفى قوائم الأجوان والتى تستبدل أحيانا بقطع من الطوب وبدلا من استخدام الأقدام فى فى ضرب الكرة يستخدم فى ضربها جريد النخل ، والكرة الخاصة بهذه اللعب مصنوعة من قطع القماش المربط بحبال النخيل وهى فى حجم كرة القدم ٠



شكل رقم (٤)
شباب قرية بني هلال يلعبون لعبه الخطيب

لعبــة السيجة :

تنتشر لعبة السيجة بين كبار السن ويلتف حولها اغلبهم وهى تقوم بين اثنين يحمل كل واحد منهما ١٢ قطع من الأحجار الصغيرة يحركها فى ٢٥ مربعا على الأرض ويتم الفوز من احدهم فى حالة السبق فى كسب أكبر عدد من أحجار الأخر ٠ وهذه اللعبه أقرب ما تكون الى لعبة الشطرنج ٠

التليفزيون :

أصبح التليفزيون يحتل الصدارة بعد جهاز التسجيل والراديو خاصة بعد أن أدخل التيار الكهربائى للقرية عام ١٩٧٩ ٠

وظهر جليا حيازة التليفزيون فى المقاهى الصغيرة « الغرز » والتى يلتف حولها رجال القرية وشبابها ويلعبون الورق والطاولة ويشربون المعسل ٠

أما المرأة فهى أقل حظوة بمشاهدة التلفزيون لعدم توافره فى بيوت القرية الا فى عدد محدود منها ٠

الاتجاهات المذهبية الدينية :

يغلب على أهل القرية الأخذ بالمذهب المالكى ٠ ومذهب أبو حنيفــة ومع ذلك فمعظمهم لا يعرف من أسباب الأخذ بهذه المذاهب الا انهم توارثوا أفكارها من أسلافهم أو من بعض رجال الدين ٠

أما بالنسبة لاعتناقهم لأفكار الطرق الصوفية فالملاحظ أنه يشيع بينهم ثلاثة طرق منها الحامدية الشاذلية ويبلغ عدد أعضاؤها بحوالى ٥٠٠ عضو ثم الرفاعية والضيفية ويبلغ عددهم ما يقرب من ٣٠٠ عضوا لكل طريقــة ومعظم لقاءات هؤلاء تتم فى حضرات الذكر بالمسجد الكبير ليلة الجمعة بعـد صلاة العشاء ٠

ويمكن هنا أن نماثل بين التنظيم القبلى لأهل القرية لوجود شيخ أو



شكل رقم (٥)
لعبة السيجه بين رجلين فى قرية بنى هلال

رئيس له سلطة ونفوذ قويين وقدرا وافرا من أحترام كبار السن فى التنظيمين ولوجود علاقات قرابة فيزيقية فى التنظيم العائلى وقرابة روحية فى التنظيم وفى درجة التماسك (١٢) ٠

الأفكار حول الأضرحة والنذور :

تلتف أفكار أهل القرية حول كرامات « الشيخ محمود سليم » الذى يقع ضريحه فى شمال القرية والشيخ البهنساوى الذى يقع ضريحة فى غربها ٠

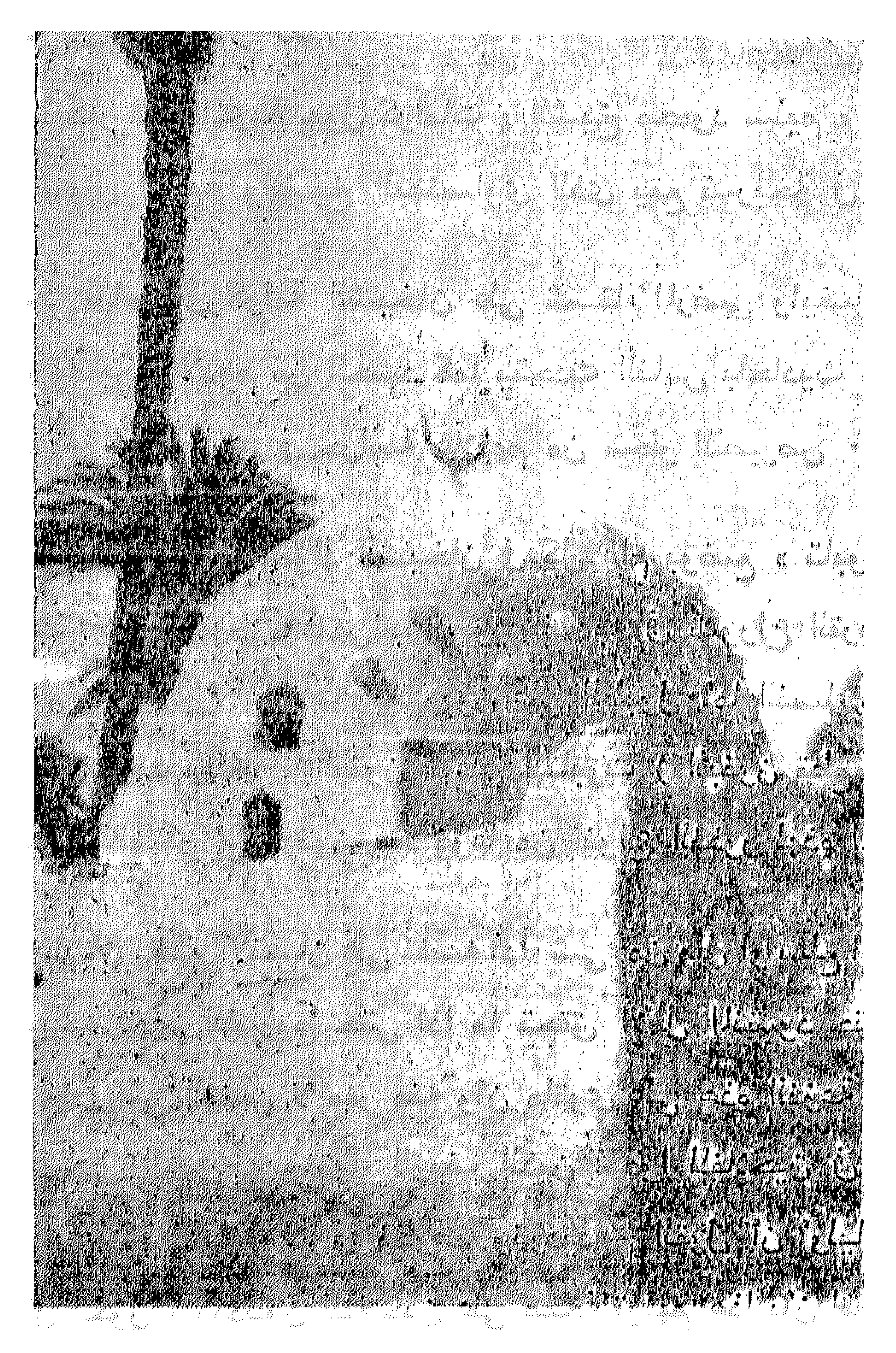
ويعتقد الناس فى كرامة الشيخان على شفاء المرضى وأيضا شفاء الحيوانات وحماية أولادهم من الحسد كما يتحدث الناس بأحاديث قاطعة عن كرامات الشيخ البهنساوى فى حراسة غلاتهم من سطو اللصوص ٠

ولهذا يحتفل الناس بمولد الشيخان فى كل عام بوضع « تابوت » على جمل يرمز لمقصوره الشيخ المحتفى به ، ويطاف به فى شوراع القرية وحوله الرجال والأطفال يحملون الرايات ويضربون على الطبول٠أما النساء فيستقبلن هذا الركب بالزغاريد والقاء « البنون » على التابوت (البنون قطع من الخبز الصغير المحلى بالسكر) والبنون يعد نوعا من أنواع النذور لهذه المناسبه ٠

والنذور هى أن يقطع الانسان على نفسه أداء شىء من مال أو سلع أو حلوىأو طيور أو ذبيحة تقدم للضريح حتى اذا ما تحقق الأمل المنشود حتى أصبح اداء النذور عهدا على النفس لا مفر منه وأن ماقوى على هذه النزعة فى نفوس أهل الريف رجال الصوفية وفقهاء الريف الذين أكدوا للفلاحين فى كثير من الأحيان قدرة هؤلاء الأولياء ـ فى نظرهم وترديدهم القول أن أولياء الله هم المتصرفون فى الكون « ويدللون للفلاحين على صحة قولهم هذا بأن الله سبحانه

---

(١٢) فاروق احمد مصطفى ٠ البنـاء الاجتماعى للطريقة الشاذلية فى مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب الاسكندرية ١٩٨٠ ص ١٢٣ ٠



ضريح الشيخ محمود سليم بقرية بنى هلال
شكل رقم (٦)

وتعالى لا يرد لأصحاب هذه الأضرحة بطلب وأن فى قدرة هؤلاء الاولياء عن طريق الترخيص الذى منحه الله لهم وايجاباتهم لطالبهم ، ازالة جميع مايلم بمن يقصدهم وينذر لهم ويجوز رضاهم هذا بالاضافة الى سرد كثير من القصص والعبارات ، التى كانت تدور على ألسنتهم وكالها تهدف شيئا واحدا هو اثبات الكرامات • والمعجزات التى تدل على قدره هؤلاء الأولياء (١٣) •

ظاهرة الثــار :

ان تقارب الملكيات والاعتماد الرئيسى للسكان على العمل الزراعى ونظام القرابة السائدة فى القرية جعل الفرد يعتنق ويتمثل قيم الجماعة القرابية التى شخصية ينتمى اليها فتذوب شخصية من ناحية كما يستمد منها كل كيانه ومقوماته الاجتماعية ظن ناحية أخرى • واذن فأى اعتداء على أى فرد فى تلك الجماعة يعتبر بمثابة اعتداء على كل الجماعة التى هو عضو فيها وبالتالى يعتبر اعتداء عليه هو نفسه ويجب أن يرد ذلك الاعتداء كما لو كان قد وقع عليه شخصيا •

ويقتضى قانون الثــار على الأسرة أن تأخذ بثأر قتيلها والا لطخت بالعار الى الأبد وانخفضت منزلتها الاجتماعية فى نظر الأسر الاخرى وأنه ينبغى أن تأخذ العائلة بثأر قتلاها بأيدى ابنائها ولقد شاهدنا فتره دراستنا بالقرية ذلك التوتر القائم فيها نتيجة سقوط قتيلين من أسرة « الحلبى » بيد أحد افراد أسرة « قبيض » وبالرغم من انتشار رجال الأمن أمام بيوت الأسريين الا أن تكتلات الرجال ما بين عشرين وخمسة وعشرين منهم كانت واضحه للفريقين وهم جلوس حول شرب المعسل بالقرب من مساكنهم ومظاهر التحفز قائمة للثار • ومن الحقائق المثيره فى هذه الظاهرة أن المرأة تلعب أخطر الأدوار فى دفع الرجال على الانتقام كما تبث روح الثأر فى نفوس الأطفال فيشبون على نزعة الانتقام

---

(١٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشــر ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٢٢٦ •

ومع كل ذلك فالمرأه فى أغلب حالات الثأر شريك فى أعداد الخطط له وتجهيز الكمائن وتهريب السلاح بالرغم من زعم اهـل القـرية أنهم ينتسبون الى جد واحد ومع ذلك فهم قوة واحدة ضد من يعاديهم وهم بذلك يضربون المثل الشائع انا واخويا على ابن عمى .. وانا وابن عمى على الغريب ولقد ذكر لنا أحد الرواة أن الصراع بين أفراد القرية ليس مستحدثا ولكنه يرتبط من زمن بعيد بقدر ما يذكر فان عام ١٨٩٦ قد شهد صراعا على الثأر بين عائلة انسوالم وعائلة العادلى . ثم تلى ذلك فى عام ١٩١٨ ثأر بين عائلة الحميدات والمجاورة وفى عام ١٩٣٠ نشب صراع للثأر بين عائلة أبو قورة وأبو سبيكو وفى عام ١٩٤٧ قام صراع بين النجوع بدأ بعائلة عثمان محمد والكريمات بنجع الجعران . ثم فى عام ١٩٤٨ بين المجارة ونجع العزبه . وبين انهوايدة وسـليم ، وفى عام ١٩٥٠ بين عائلـة القور العوامر وفى عـام ١٩٦١ م . وبين عائلة عبـد الخـالق والزهـارنه وفى عام ١٩٦٢ انقسـمت عـائلة حجازى على نفسها بسبب ثأر بين أبناء العمومة . وفى عام ١٩٧٢ قام صراع بين عائلة عامر وأبو على وآخرها عام ١٩٨١ بين عائلتى المجلى وقبيص ومن مظاهر الافتخار فى الثأر أن يعلن القاتل عن نفسـه فى حالة تصفية ثأره من غريمـه فيظل فتره بجوار جثة القتيـل . أما أن كان هـو المعتدى ففى هذه الحالة يولى الأدبار ويصبح دمه محسوبا عليه أو على أقرب العاصبين اليـه .

الثـأر الجماعى :

لعل ما يلفت النظر فى ظاهرة الثأر فى بنى هلال الثأر الجماعى الذى يخرج له أهل القرية فى حشود كبيرة يشارك فيه النساء والأطفال وهو ما يشكل احد المظاهر المثيرة لهم والذى يبدأ بدق الطبول وحـمل الرايات والسـيوف والهراوات والسلاح النارى . ويتمثل دور النساء فى المشاركة بحمل المياه

والنقالات لحمل الجرحى وكل هذه المظاهر تأخذ الطابع القتالى فى الاغارة على القرى المجاورة ٠

ويذكر أحد الرواة عن شواهده للاغارات التى قام بها « بنو هلال » على جيرانهم فيذكر ما حدث منها عام ١٩٢٢ على قرية الحرارية ، وعام١٩٤٨ على قرية الجزازره وبهذه المناسبه نجد فى العدوان على قرية الجزازره الطابع القبلى فى العدوان ٠ فقد جمعوا حولهم النجوع المجاورة عن طريق استثارتهم بدق طبول الحرب كما استعانوا بحلفائهم «من الريايـنة» الذين يقيمون بالضفه الشرقية من النيل ومع ذلك فقد اصطحبوا النساء فى مسيرتهم يحملن المياه والنقالات تنقل الجرحى والموتى منهم ٠ مما أضفى على تحركاتهم واغارتهم طابع الحرب النظامية واضطرت قوات الأمن الى التدخل لحماية اهل القرية المعتدى عليها ورد « بنى هلال » ، وفيما يبدو أن الهلالية قد حققوا بعض الشىء من هدفهم وهو ما تعكسه أغانى أطفالهم التى مازالو يرددونها فى شوارع القرية وكأنها جزء من أعمال بطولات آبائهم « يا أولاد بنى هلال يافتوه ياللى غلبتوا الجزازره والقوه ٠ وفى ٢٠ / ١٢ / ١٩٧٩ ٠ قام بنو هلال بالاغارة على شوارع مركز المراغه انتقاما لأحد أبنائهم الذى أشيع حوله أنه أصيب بمقتل على يد أحد أبناء المراغه واستخدموا فى عدوانهم السلاح النارى ، والسيوف ٠ والهراوات (١٤) ٠

وكان الواضح من كل اغاره أنها نتيجه عوامل لمشكلات فرديه بين أحد افراد بنى هلال وأحد افراد تلك القرى المعتدى عليها ٠٠٠ وهذا يعنى أن الاعتداء على أى فرد من أهالى القرية يعد اعتداء على الجماعة كلها ٠

اذن فروح الجماعة تسيطر على جميع تصرفاتها فى الداخل وفى الخارج وترسم لها البواعث والاهداف وتقيد سلوكها أفرادا ، وجماعة وهذا يقربها فى التصنيف

---

(١٤) قضية رقم ١٤ ــ ١٩٧٩ ــ أمن دولة ــ المراغة

النفسى الى الجيش النظامى المتدرج فى القيادة على النظام الهرمى نفسه ، والمحتفظ فى تاريخه بأمجاد يعتز بها ويفاخر بها • وكل فرد فى مثل هذه الجماعة انما هو صورة مصغرة لها يحس باحساس الجميع ويقوم من غيره مقام الأخ يحميه اويهتم بكل ما يصدر عنه ، فالعمل الفردى يجر دائما الى عمل عام ومن ثم كان كل واحد يصدر عن رقابة جماعية متيقظة فى داخل ذاته وخارجها على السواء واذا اتفق له ان لقى أفرادا من غير قبيلته فانه لا يتعرف اليهم أو يهتم بالتعرف اليهم بالذاتية الخاصة لكل منهم ، وانما يلقى باله كله الى القبيلة التى ينتسبون اليها فيقبل عليهم أو ينفر منهم تبعا للعلاقة القائمة بين قبيلته وقبيلتهم وهكذا تعنى مسئولية الفرد وتحل محلها المسئولية العامة المشتركة وتتحدد الخصومات الخارجية أو الداخلية وفقا لهذه المسئولية المشتركة وما يعتبرها من قوة أوضعف وروحها المعنوى من هذه الناحية أقوى من الجيوش وأكثر تماسكا لأن الأواصر التى تجمع بين الاحاد أدخل فى الطبيعة وأبعد عن الانتقال وألزم للحياة •• وهذه الشخصيه الجماعية تصب الأفراد فى قالبها صبا فهى لاتنتج الشخصيه الفردية بل لاتحاول • انتاجها ومانراه من امتياز بعض الاحاد وتبريزهم واحتلالهم مكان الصدارة فى الكيان الجماعى بأسره لا يعنى أنهم أفراد ذو خصوصية وانما يعنى أنهم صور مجسمه من الاحاد العادين وما أكسبهم التقدم أو التبريز ليس هو التفرد بغير المألوف ولكن التفوق فى القيام بعمل شائع يجاوز به قدرة الأوساط العادين (١٥) •

والشىء الملفت للنظر ذلك الحلف القائم بين قرية بنى هلال وقرية الربايبة الذى أدى الى فى الاعتداء على قرية الجزازرة عام ١٩٤٨ •

وفى الحقيقة أن هذا الحلف بين القريتين يعد ميثاقا وقد تعاهد فيه أهل القريتين أن يكونا صفا واحدا متساندا ينفرون الى القتال معا ويحتملون

---

(١٥) عبد الحميد يونس • المصدر السابق ، ص ٩٢ ، ٩٣

الديات معا ويأخذون بثارات بعضهم بعضا ويؤلف هذا الحلف نموذجا فيه ملامح من عصبية النسب ٠

ومعنى ذلك حسبما يذهب « أحمد ابو زيد فى دراسته للثار ، يمكن القول أن نظام الثار يعد نظاما داخليا ينطبق على القرية ذاتها فى المحل الأول وقد يمكن أن يقوم بين هذه القرية والقرى الاخرى التى تدخل معها فى علاقات اجتماعية مباشرة مما يستلزم ضرورة حفظ التوازن بينها ٠ ففى هذه ـ الحالات تقوم العداوة بين جماعات من الناس وليس بين الأفراد ٠ وان كانت تنشأ أصلا نتيجة لسوء تصرف الأفراد ، فمفهوم العداوة والثأر يتطلب اذن وجود جماعتين قرابيتين تتمتعان بدرجة معينة من الاستمرار فى الوجود والبقاء بحيث يكون لهما عمق بنائى يقاس بالأجيال ٠ فالناس يحفظون بدقة تاريخ العلاقات الثأرية بين مختلف البلدان خلال كل هذه السنوات الطويلة ويعرفون تفاصيل تسلسلها ويعتبرون ذلك جزءا من تراثهم يتناقلونه عبر الاجيال ٠

مؤشرات الثار :

تشير أحداث العدوان الثأرى الذى يقوم به بنو هلال على جيرانهم انهم كانوا يستخدمون كل مرة الطبول والسيوف والرايات ٠

الطبول :

فأما الطبول فهى مقدمة اعلان من شيوخ القرية برد العدوان على أحد القرى وهو ما يتطلب حشد الرجال وتوجيههم نحو المعركة٠ويذكر أحد شيوخ القرية أن هناك دقات مميزة اذا سمعها جيرانهم وخاصة حلفائهم من «الربايبنة» الذين يرتبطون معهم بميثاق التحالف فانهم يخفون الى القرية برجالهم وأسلحتهم ليكونوا تحت راية بنى هلال ٠ وهو يشير فى ذلك الى واقعة الاعتداء التى قام بها بنو هلال على قرية الجزازرة فى عام ١٩٤٨ وانضم اليهم فيها رجال « الربايبنة » ٠

ويذهب « عبد الحميد يونس » فى تفسير استخدام الطبول بين قبيلة بنى هلال مؤرخا بقوله « لما أتسعت الجماعة الهلالية وتعددت أقسامها اصطنعت وسائل للتفاهم المتصل بالشئون العامة وبخاصة القتال والهجرة وأبرز هذه الوسائل الطبول المتجاوبة فقد اصطلحوا بعدد من الدقات لدعوة الى اجتماع أو انذار بغارة أو حث على قتال او هجرة او انتقال ٠

الرايـــات -

واذا انتقلنا الى ظاهرة رفع الرايات فى مسارهم للاعتداء بالثار على جيرانهم فأن الملاحظ أن هذه الرايات تتخذ أحيانا للتضليل على أساس أن مسيرتهم تتجه لزيارة أحد أولياء الله الصالحين وهى فى نفس الوقت تأخذ من الرايات شعارا للقتال كما كان الحال للقبائل العربية ٠ فقد كانت شارة المغايرة هى اللون يتعارف به ولا يدل على معنى آخر ٠

ولم يرد فى كتب التاريخ ما يشير الى الألوان الخاصة بمختلف القبائل والأحلاف ولكن مما لا شك فيه أن الاحتفال برفع الرايات وعقدها للامارة فى الجمع لا يخرج عن العصبية البطرقيه الاولى (١٦) ٠

السيوف :

بالرغم من أن حيازة الأسلحة فى قرى الصعيد تعد سمة طبيعية بين أفراد العائلات الا أن الشىء المثير حقا هو استخدامهم السيوف فى اغارتهم على جيرانهم ٠ والغريب فى الأمر أن بعضهم مازال يحفظ تاريخ سيفه ويحكى حوله أقاصيص البطولات التى أستخدم فيها بأيدى أجداده ٠

ولقد كان السيف دائما علامة من علامات البطولة التى يؤرخ به للمعارك والانتصارات ولقد كان العرب من أكثر الأمم حفاوة بالسيف وعراقه فى

---

(١٦) عبد الحميد يونس ٠ المصدر السابق ص ١٠١ ٠

استخدامه يدل على ذلك هذه الوفرة المتصلة بأسماء السيوف وتفوتها من حيث خصائصها وكلتها ولمعانها واهتزازها ، وكذلك نعومتها من قبل صقلها وطبعها وعرضها ولطفها وانضائها واغمادها وانهائها وتجريبها . واستعمالات السيف المتنوعه ، فالعرب كما قالوا : « كانت تطعن به كالرمح وتضرب به كالعمود، وتقطع به كالسكين . وتجعله سوطا ومقرعة ، وتتخذه جمالا في الملأ وسراجا في الظلمة ، وأنيسا في الوحدة ، وجليسا في الخلاء ، وضجيعا للنائم ، ورفيقا للسائر » (١٧) .

ولقد ظهر لنا ارتباط السيف ببعض أسر بني هلال فانه يبدوا ارتباطه قائما باستمرار بقاء العائلة وتاريخها الذي يرتبط بتاريخ فروسية جدهم الأكبر أبو زيد الهلالي .

---

(١٧) فوزى العنتيلى . المصدر السابق . ص ٣٥٤ .

قائمة المراجـــع

المراجع العربية :

احمد ابو زيد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية · الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ·

احمد ابو زيد : الثأر · دراســة انثروبولوجيــه باحدى قــرى الصعيد · دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ·

احمد مختار العبادى : فى تاريخ الغرب والاندلس · مؤسسه الثقافة الجامعيه بالقاهره بدون تاريخ نشر ·

تقى الدين أحمد بن على المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب طبعة المعارف ١٩١٦ ·

جمال زكريا قاسم : استقرار العــرب فى ســاحل شرق أفريقيا · مطبعـــة عين شمس القاهرة ١٩٦٧ ·

حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا · الجزء الأول ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهره ١٩٥٨ ·

رونالد اولفير : موجز تاريخ أفريقية · ترجمة دولت احمد صادق · الدار المصرية للتاليف والترجمة بالقاهره · بدون تاريخ نشر ·

على عبــد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلــدون · مكتبة مصر ١٩٦٢ ·

علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون • الهيئة المصريه العامه للكتاب ١٩٧٥ •

عبد الباسط محمد حسن :اصول البحث الاجتماعي•مكتبة وهبه القاهرة ١٩٨٠

عمر ابو النصر : تغريبه بنى هلال ورحيلهم الى بلاد الغرب • وحروبهم مع الزناتى خليفه • المكتبه الثقافيه بيروت • ١٩٧٨

عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من مماليك لأمم• الجزء السادس طبعة دار الكتب اللبنانى• بيروت ، ١٩٦٨ •

عبده بدوي : مع حركه الاسلام فى أفريقيا • دراسة من خلال الدول التى قامت قبل الاستعمار • الهيئة المصرية العامه للتاليف والنشر بالقاهره، ١٩٧٠

عنايات الطحاوى : أفريقيا الاسلامية • المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة ١٩٧٠ •

عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلاميه السودانية بأفريقيه الغربيه • المؤسسه العربية الحديثة للطبع والنشر القاهرة ١٩٦١ •

عبد الحميد يونس : الهلاليه فى التاريخ والأدب الشعبى • دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ •

عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر • مطبعة جامعة عين شمس بالقاهرة ١٩٧٤

غريب محمد سيد احمد : المدخل فى دراسة الجماعات الاجتماعية • دار الكتب الجامعيه بالاسكندريه ١٩٧٣ •

فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية · دار الكاتب العربى للطباعه والنشر بالقاهره ١٩٦٦ ·

فوزى العنتيلى : بين الفلكلور والثقافة الشعبيه ، الهيئة المصريه العامه للكتاب القاهرة ١٩٧٨ ·

فاروق احمد مصطفى : البناء الاجتماعى للطريقه الشاذليه فى مصر · الهيئة العامه للكتاب بالأسكندريه ١٩٨٠ ·

كلويد كلوكهون : الانسان فى المرآه · علاقة الأنثروبولوجى بالحياة المصرية · ترجمة شاكر مصطفى سليم · المكتبه الاهليه ببغداد ١٩٦٤ ·

محمد عارف : المنهج فى علم الاجتماع · الجزء الأول · المنهج الكيفى والمنهج الكمى فى علم الاجتماع · دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٢ ·

ماكيفر وبيدج : المجتمع – ترجمه على احمد عيسى · مكتبة النهضة العربيه القاهرة ١٩٦١ ·

محمد بن عمر التونسى : تشحيذ الأذهان بسيره بلاد العرب والسودان · الهيئة المصريه العامه للتأليف والنشر القاهرة

محمد ثابت الفندى : الطبقات الاجتماعية · دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٦٠

محمد طلعت عيسى : مقال عن التنميه الثقافيه فى المجتمعات الريفيه · الحلقه الدراسيه لعلم الاجتماع الريفى القاهره ١٩٧٠

محمد عاطف غيث : علم الاجتماع · دار الكتب الجامعيه بالاسكندريه ١٩٧٣

محمد عاطف غيث : علم الاجتماع القروى · دار المعارف الاسكندريه ، ١٩٧٠

محمد عوض محمد : السودان وادى النيل · مطبعة جامعه القاهره ·

محمد قنديل العنتيلى : الامثال الشعبيه · دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٨ ·

المراجع الأجنبيه :

- Aron, A., Introduction ala philosophi de historie N.F.R. 1970.
- Encyclopedia of Social Science, Mac Millan., New York. 1950.
- Fage, J.D., A History of west Africa. Cambridge University Press. 1969.
- Gebril Hantaux, Histoire De la Nation Egyptienne. Tome VI.
- Gustave Le Bon, La civilisation Des Arabes. libraire. 1884.
- Herskovits. A. cultural Antropology. New York 1955.
- Leslie A., white, The concept of culturc. American Antropolgist, 1959.
- Lundberg., Foundation of sociology. New York. Mac Millan.
- Relaph Linton. The cultural curtain Annals 1959.
- Reush., History of East Africa. London. Oxford. 1960.
- Spencer Trimingham., Islam in west Africa., Oxford. London 1976.
- Wals W.H. philosophy of history on introduction. Harper torch Books N.Y. 1960.

رقم الايداع ٤٥٠٤ / ٨١

الترقيم الدولي ٠ ـ ٤١ ـ ٧٣٥١ ـ ٩٧٧

دار التضامن

٢٢ شـــارع سامى ـ ميدان لاظوغلى

تليفون : ٣٠٥٥٦